

نور شحط

رواية

عاشت حلب

2017

مواقف الرواية

- * محطة الإهداء
- * موقف لا بدّ منه
- * فقرة الغلاف
- * الموقف الأول: الصور غير الواقع
- * الموقف الثاني: السعادة من العطاء
- * الموقف الثالث: القيمة في الوقت
- * الموقف الرابع: الاسم يعني التميز
- * الموقف الخامس: أي شيء بمقابل
- * الموقف السادس: لا بدّ من التغيير
- * الموقف السابع: المرايا الصافية لا تكذب
- * الموقف الثامن: لكل موقف نقطة توقف
- * الموقف التاسع: القرار سيد الموقف
- * الموقف العاشر: القوة تكمن في الإيمان
- * الموقف الحادي عشر: الصمت نصف الحقيقة
- * الموقف الثاني عشر: الحياة لا تقف عند موقف
- * إصدارات الكاتبة الأدبية

محطة الإهداء

أهديها إلى التراب الذي شرب من دم الشهداء
أهديها إلى السماء التي عانقت أرواح الأبرياء
إلى الشمس التي شهدت على صمود أهل حلب
أهديها إلى العَلم الذي نال مرتبة الشرف
إلى القلم الذي كتب حروفها حتى جَف
أهديها إلى الذين طعنوا صدر الحَب بالراء
إلى الحياة والموت على حدٍ سواء.

رواية عاشت حلب

موقف لا بد منه

عاشت حلب هي تشابك خيوط الواقع مع الخيال
وأي عُقد ناتجة عنها ليست إلا محاولات سرد معاناة أهل حلب أثناء
فترة الحصار على المدينة...
أتمنى تجاوز كافة المواقف برحابة فكر.

فقرة الغلاف

رغمًا عن أنف الضجيج
وأنفاس التشويش المفخخة في الخذلان
هناك هسيس داخلي إلى القريب جداً
إلى الحب الذي تعثر بي قبل فوات الأوان
شكراً لوجودك... ولتضحك الذاكرة في حضورك
واعلم أنني بغيابك لا أفقد سوى نفسي.

الصور غير الواقع

تُؤدّ البدايات من رحم النهاية إلى أن تكبر وتشخ لتعلن عن مخاض
آخر لبداية جديدة، وها قد أطل علينا يومًا جديد لا نعلم كيف نهايته! هل
الموت مكتوبًا على أوراق دفاترنا؟ أم سنتابع مع الحياة؟!
أصبحنا وأصبح الملك لله، لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على
كل شيء قدير، لا يهم ما هو اليوم! إثنين، ثلاثاء أو أربعاء... جميعها
أيام في أسبوع والأسبوع في شهر والشهر في سنة والعمر يمضي...
إلا أن اليوم الماضي كان له نكهة خاصة مليئة بالمرار، فكل لحظة
مرت مساء أمس كانت تخبرنا أن شيئًا سيئًا سيحدث! لقد انتهت ساعة
العصر بكمية كبيرة من القلق والهلع لم نكن ندري إلى أين سيذهب بنا
ذاك الخوف! فهناك شخص من العائلة غائب ولم يصلنا منه أي خبر
على أنه بخير!

ومع بزوغ الساعات الأولى من فجر هذا اليوم كان لنا مع الحقيقة موقف لم نعشه من قبل...
المشاهد القاسية تكون دائماً مثبتة بدبوس حاد على جدار الزمن، بحيث نتألم حزناً مع كل تنهيدة.
شعور سيئ أن تفقد شخصاً عزيزاً عليك بشكل مؤلم دون أن تقوم بوداعه، كانت الصدمة كبيرة جداً إلى حد تجمدت فيه الدموع بالرغم من لهيب الأحداث وسيطرة الذهول عليها، زوجتي انهارت من هول الفاجعة بينما أُمي تيريزا غرقت في واحة الصمت.
لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، إن لله وإن إليه راجعون.
انتهت مراسم الدفن قرابة الظهر، ومع أشعة الشمس العمودية تختفي الظلال، ولا وجود لأي احتمال سوى ما نعيشه على أرض الواقع.
منزل أهلي مزدحم بالجيران والأصدقاء، لقد أتوا حاملين معهم واجب العزاء لي ولعائلتي...
الأحداث التي توالى على المدينة بشكل سريع قطعت علينا حلم جميل عشنا داخله أحلى الأيام، نحن إلى اليوم لم نستوعب كيف كنا وإلى أين وصلنا! أشياء كثيرة حصلت في الآونة الأخيرة جعلت كل المقاييس تتغير.

أن تمرّ بجانب صورة بوست إعلاني لأي مرفق على جدار أو في مجلة
مختلف تماماً عن تجربته بكامل حواسك، كخطين متوازيين لا يلتقيان
أبداً! لأن كلاهما يحمل نفس الاسم ألا وهو خط مستقيم.

كذلك المواقف التي مررنا بها والتي ما نزال نتراقص ألماً من قسوتها
تبصم بالعشرة أنّ الذي يده في الماء غير الذي يده في النار، فالموت
قريب جداً يلف ويدور حولنا في كل مكان من شوارع المدينة، حتى
تحت سقف المنازل نراه أماننا موجود في كل الأركان، يعيش معنا في
كل نفس وحركة، صدر البيت له والعتبة للحياة.

عندما كنت مشغول في استقبال الناس وشكرهم على تقديم واجب
العزاء، أخذت ذاكرتي تعود إلى الخلف، حيث أنّ متواليّة الوقوف
والجلوس لمرات متكررة جعلتني أعود إلى يوم أنت فيه بيسان إلى
منزل أهلي وهي ترتعش باكية سألتها حينها: ما بك يا بيسان؟ لم كل هذا
الخوف؟

كانت خائفة جداً من فكرة ذهابي مع أهلي والسفر إلى مدينة القامشلي
كي أطلب يدها للزواج بشكل رسمي والتعرف على عائلتها والأقرباء،
كانت تتمم بعبارات فهمت منها أن والدها قام على تحذيرنا من المجيء
إلى المدينة...

سألته عن السبب فأجابت حينها بأن عمها ثار غضبه عندما انتشر خبر زواجنا، ثم قام على تهديد والدها بقتلنا معًا إن رآنا في المدينة. عدت وسألته: ولم يغضب عمك المصون؟ أجابتنى: كأنك لا تعرف السبب!

حينها قمت على تهدئتها بكأس من عصير الليمون المنزلي المثلج المطحون مع نبات النعناع الأخضر الذي بات من المشروبات المنقرضة حاليًا، ثم قام والدي بالاتصال مع أبي يونس رحمة الله عليه، ليتفق معه على إتمام أمور الزواج دون حضورهم، وذلك لدواعي أمنية لكلا الطرفين، على أن يُقام حفل زفاف بسيط ينهي القصة بلا مشاكل. حزنت ببسان يومها كثيرًا على غياب أهلها لأهم مناسبة في حياتها، لكن لم يكن هناك حلّ مناسب سوى الذي كان آنذاك...

إن مسألة اختلاف الأديان بين الطرفين ما تزال تشكل عائقًا كبيرًا لبعض قصص الحب، لأن تقاليد مجتمعنا جعلت الزواج بين المذاهب المختلفة في ذات الدين من عجائب الدنيا فكيف إذن مع اختلاف الأديان! هنا قد تحصل معارك وحروب غالبًا يذهب ضحيتها أصحاب العلاقة وحدهما وهما الشاب والفتاة، وعلى جميع الأحوال إنه لأمر طبيعي أن تتعرض كل مسألة زواج لبعض المشاكل وعلى الطرفين التصرف بذكاء كي تنتهي بخير وسلام.

زوجتي بيسان تعتنق الديانة المسيحية، وهي من العائلات السريانية المتواجدة بقلة في مدينة القامشلي، لكنها انتقلت إلى مدينة حلب من أجل دراستها الجامعية في كلية الآداب قسم لغة فرنسية.

لقد كان لقائنا الأول من خلال وجودي في ندوة ثقافية أُقيمت في كلية الآداب، إذ كانت بيسان من هيئة منظمي الحدث، حينها كنت واقفًا أمام باب القاعة مع صديقي عابد ننتظر شخص يستطيع مساعدتنا في دخول القاعة، لأن الندوة كانت مقتصرة على طلاب الآداب بأقسامها حصرًا...

يومها قام على نصحي أحد الزملاء الأساتذة بالذهاب إلى تلك المناسبة حيث قال لي وقتها:

ها قد أنهيت دراستك في كلية الهندسة الميكانيكية بتقدير جيد، ثم تم تعيينك معيد محاضر فيها، وأصبح الوقت مناسب كي تتزوج ونفرح بك، العزوبية إن طالت على الشاب كفيلة بأن تجعل مشاعره باردة تجاه الزواج، وذلك يسبب خطر على المجتمع لا يحمد عقباه.

أجبتّه بحالة من الرضى: وما أنا بفاعل؟! لعلّ نصيبي لم يأتي بعد!
فتابع قائلاً: اذهب يا زميلي إلى كلية الآداب، وينتهي الأمر.

عدت وسألته: ولم كلية الآداب تحديدًا؟

فكان جوابه: الطالبات هناك يملكن شهرة واسعة من الجمال والأدب.

ضحكت في نفسي حينها ودغدغت البنت الفكاهية -إحدى بنات أفكاري-
رأسي قائلة: وهل أكتب لك على ورقة مطلوب عروسة وأضعها على
صدرك؟ ثم تقف على باب الكلية لتراقب القادمة والذاهبة!!
لكن الأستاذ تابع قوله دون تباطؤ: هناك ندوة ثقافية ستحدث في كلية
الآداب بعد يومين وسيكون طلاب السنة الأخيرة جميعهم، لن تخسر
شيئا إن ذهبت!

وهذا ما حصل، ذهبت لألتقي مع القدر! فمنذ اقتراب بيسان نحونا
شعرت أنه سيكون لي أيام جميلة مع تلك الإنسانية، إذ ظهرت أماننا
فجأة! ثم اقتربت نحوي موجهة السؤال لي قائلة: هل حضرتك طالب من
كلية الآداب؟

طالما كنت أملك ملامح طفولية -بيبي فيس- فأنا معتاد على هذا السؤال،
وما زلت لا أروي عدد سنوات عمري الحقيقي، فكل من يراني يحسبني
أصغر بسنوات عديدة، بينما حالياً تجاوزت الثلاثة والثلاثين...
إنّ بعضاً من أصحاب الملامح الطفولية لا يعرفون قيمة ما يملكون من
صفات، إذ لا يقومون على تقدير امتلاكهم عمر ثابت في مرحلة معينة
من الشباب، لكن في المستقبل سوف يرون أن تلك الملامح نعمة كبيرة
كلما تقدم بهم العمر.

كمية الغش التي امتلكها في عمري جعلتني أتجاهل سؤالها في ذلك الوقت لأطلب منها السماح بالدخول لحضور الندوة، وهي وافقت مرحبة بوجهٍ بشوش، فتأكدت حينها أن ما شعرت به صحيح.

لكن صديقي العزيز عابد قطع شعوري الجميل، حين وكزني من خلف ظهري ليخبرني شيئاً رأيته لكنني قمت على تجاوزه فوراً، قائلاً لي: إنها مسيحية يا صديقي، ألم ترى الصليب معلق في رقبته؟

عابد عرف من نظراتي لها أنني وقعت في شباك الحب، كيف لا! ونحن صديقان منذ بداية رحلتي على هذا الكوكب، يعرف طريقة تفكيري والمشاعر التي أعيشها دون أن أتفوه بأي كلمة.

تجاهلت تعليقه أيضاً، فقد دخلنا القاعة وجلسنا بالقرب منها، لتبدأ الندوة وتنتهي وأنا لم أكن هناك! لقد سافرت من حينها إلى بلاد بيسان بتذكرة ذهاب بلا عودة...

وبدأت بعدها لقاءاتنا المتكررة على أننا أصدقاء ثم ما لبثت أن تحولت الصداقة إلى حب تُوج بالزواج، لأننا في الحقيقة لم نضع اختلاف الدين عائناً في طريق علاقتنا الجميلة.

عندما يتواجد الحب الصادق بين الأفراد تزول جميع الفوارق التي توجد في طبقات المجتمع.

والأجمل أن أبي يونس رحمه الله وأمي تيريزا لم يعارضان الزواج، بل قاما على منح ابنتهما بيسان المباركة بالرغم من معارضة أقربائهم والذي وصل إلى حد الخلاف معهم والمقاطعة!

ولذلك رسي القرار حينها على قيام حفلٍ بسيطٍ في نادي المعلمين، ودعوة المقربين جداً من العائلة لمشاركتنا الفرحة، بعد أن تركنا موضوع حل خلاف أقرباء عائلة بيسان إلى الزمن.

الوقت كفيل في حل أكبر المشاكل، فكلما تمضي الأيام تأخذ معها كل شيء سيء، حتى الذكريات السيئة تذوب مرارتها مع مرور الأيام.

مكثنا في منزل إيجار كائن في منطقة العزيزية يتألف من غرفتين وصالة، والعزيزية منطقة قديمة تقع وسط المدينة تعتبر صلة وصل حيوية بين أحياء حلب القديمة التي تحيط بالقلعة، وبين الأحياء الحديثة التي بنيت في منتصف القرن العشرين، كما تقع الحديقة العامة الأكبر في مدينة حلب على أطراف الحي من جهة الغرب وبجانبها محطة بغداد للسكك الحديدية، والتي تعتبر من أقدم المحطات في حلب، حيث كانت رحلات السفر على أوجها بين بغداد وبرلين في أواسط القرن الماضي.

في الجهة المقابلة هناك معلم أثري قديم عبارة عن مبنى صغير لمخفر العزيزية، والذي يعد من أقدم مباني الحي، فقد أسس من أول نشأة الحي

كون المنطقة كانت خارج حدود المدينة وأسوارها، لذلك قامت الحكومة العثمانية على بناء مركز أمني آنذاك، وكما يُقال يعود تسمية الحي إلى السلطان عبد العزيز العثماني.

يمتاز حي العزيزية بالوحدة والتآخي حيث الجامع بجوار الكنيسة، والمباني فيه متلاصقة بجانب بعضها البعض، مما جعل من ساكنيه روح واحدة بالرغم من اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ففي كل مبنى تجد جميع مظاهر الاحتفالات السنوية سواء كانت تخص المسلمين منهم أو المسيحية، الأعياد تكون واحدة المشاعر واحدة والأفراح واحدة والآلام واحدة... وعدم القدرة على معرفة دين كل عائلة قاطنة في تلك المنطقة أمر عادي جداً، إذ لا يمكن التمييز بينهم للوهلة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة...

المحبة المزروعة في منطقة العزيزية لا يمكن اقتلاعها بسهولة أبداً، لذلك تعد هذه الأرض خصبة بإمكانها أن تثمر أي شيء وفي كل وقت، مما أدى إلى وجود نبع للأعمال المهنية المختلفة، ومصب للصناعات المتعددة في المدينة، وهذه القيمة المادية العظيمة ليست حديثة! حيث تعتبر مدينة حلب أقدم مدينة مأهولة، ومحطة مهمة في الشرق الأوسط، كونها وارد الصناعة الأقوى في سورية وقلبها النابض بالخيرات...

إلى حين ركلت الفتنة أبواب المدينة وكسرتّها بحقد لم تعهده من قبل
على مرّ التاريخ! لتدخلها عنوة دون استئذان، ثم فجأة انقلبت الأوضاع
رأساً على عقب، وكأن كل ما كان حلم بات من الماضي!
لقد بدأت التفجيرات من الجهة الشرقية للمدينة ثم ما لبثت أن انتشرت
بشكل عشوائي هنا وهناك، عمت معها الفوضى وعجت السماء بالنيران
وعلت أصوات القذائف، وامتألت الأرصفة والحدائق بالعائلات النازحة
من المناطق المنكوبة بأعداد كبيرة، مما دعا إلى فتح المدارس وبيوت
الطلبة الجامعية لإوائهم، كون الطرف الشرقي من المدينة لم يعد آمناً
للعيش، حيث قامت على احتلاله جبهات وفصائل قتالية غريبة عن
المدينة عملت على بث الرعب والعنف بين الأهالي، فلم يعد خيار لديهم
سوى ترك منازلهم وأرزاقهم من محلات ودكاكين والرحيل عن
المنطقة سعياً لطلب الأمان.
ولقد كان لحلب القديمة نصيب قوي من تلك الفوضى العارمة التي بدت
في حرق أسواقها القديمة المحيطة بالقلعة بعد سرقة الموجودات
والبضائع وتدمير كل ما هو قائم من مقاهي وفنادق ومنازل... مما أدى
إلى تشريد ساكني المنطقة إلى المناطق المجاورة.
لم يمضِ الكثير من الوقت حتى كانت مدينة حلب معزولة عن باقي
المدن في المحافظات السورية، لقد حاصرتها جبهات المعارضة من

جميع الجهات واستولت على جميع المنافذ والمخارج المحيطة للمدينة، فقد أُغلق طريق مطار حلب الدولي والطرق الدولية والفرعية القديمة المؤدية الى حلب، إلا طريقاً واحداً باتجاه العاصمة دمشق (طريق قرية خناصر) لم يستطيعوا السيطرة عليه، فقد بقي مفتوحاً لإمداد المناطق الجنوبية والغربية للمدينة بالمواد الغذائية والأدوية والمحروقات، مما أدى الى ارتفاع الأسعار في جميع الموارد لصعوبة تأمينها وخطورة الحركة في ظل الأوضاع الراهنة.

كانت القذائف والنيران تنهال بشكل كثيف مثل زخ المطر من الجهة الأخرى للمدينة، علّ وعسى تصيب هدف أمني أو موقع عسكري! إلا أنها كانت تضرب مناطق مدنية مأهولة بالسكان، وتدمر منشآت اقتصادية من مشافي ومؤسسات حكومية، حيث أن الجبهات القتالية كانت تريد السيطرة على الطرف الآخر للمدينة، لكن الرد عليهم كان بالمرصاد للدفاع عن المنطقة وحفظها من السقوط، حتى بات عراك أصوات القذائف وأزيز الرصاص مع صفير سيارات الإسعاف أمر طبيعي نصحو عليه كل يوم، هي سيمفونيات اعتدنا سماعها دون موعد لا تنتهي إلا بتصفيقٍ حار من الدمار والدماء...

كانت فرق الدفاع المدني المؤلفة من شباب وفتيات متطوعة في منظمة الهلال الأحمر تجوب الشوارع مع مكبرات الصوت تنادي على الناس:

"يا أهالي حلب إن كنتم في الشرق أو في الغرب، إذا سمعتم هدير من السماء أو من أي صوب، عاجلوا في النزول إلى الملاجئ ... لا تترددوا! قد لا تحميكم المخابي، لا تُعرضوا أنفسكم إلى خطر الموت، حافظوا على سلامة أرواحكم قدر الإمكان، حلب ستكون بحاجة لكم وقت الأمان، اصبروا وصابروا مهما طالت المآسي والأحزان، لا تفقدوا الأمل والإيمان، في السلم أنتم أهل العز والمجد، في الحرب أنتم أهل الشموخ والصمود، أعانكم الله وحماكم من كل شر وخفف عليكم المحن والمصائب".

أثاب الله كل شخص قام على فعل الخير من خلال تلك المجموعة، لقد كان لأفرادها بصمة مميزة في كل مكان، استطاعوا بالهمة والتصميم أن يمدوا أيادي المساعدة إلى أوسع نطاق، فلم يقتصر نشاطهم على المساعدة الطبية والبحث عن المفقودين بل شمل أيضا المساعدات الإنسانية والمادية لمن كان وضعه المادي سيئ، كون الكثير من العمال فقدوا عملهم بسبب توقف الآلات الصناعية عن العمل والدوران وإغلاق المعامل الصناعية والورشات الحرفية، حيث كان تأمين المواد الأولية صعب جدًا وعدم توفر المحروقات ليس سهل أبدًا، ما عدا الطرقات المؤدية إلى المعامل لم تعد آمنة وسلكتها يشكل خطر فادح.

لكن للأسف كان هناك في الطرف المقابل خلايا نائمة معادية موجودة في نواحي المدينة، قامت على استغلال حاجة الناس للمال بعد فقدهم كل ما يملكون، فقامت على اغوائهم وتحريضهم على الخروج في مظاهرات مقابل مبلغ من المال... فبعض ضعاف النفوس كانت تدخل المدينة تجوب شوارعها لتتهافت لنصف ساعة مقابل خمسمائة ليرة سورية أي عشرة دولارات وربما أقل ومن ثم تمضي!

أما حمل السلاح وقطع الطريق على طرقات الواصلة بين المدينة والقرى المحيطة لها صارَ عملَ لمن لا عمل له، بعدما تفجرت أحاسيس بغیضة من غلٍّ وحقد مكنونين تجاه الطبقة الثرية، فكان لا بد من أصحاب رؤوس الأموال الهجرة الى الدول العربية المجاورة أو إلى تركيا لإعادة فتح مشاريعهم هناك، لا ألوم أحد منهم لذلك، لقد عانوا كثيراً من خطف ذويهم مقابل دفع فدية خرافية، وإن لم يُستجاب لطلب الجهة الخاطفة لا يمكن تخمين ما سيحصل من قطع أوصال المخطوف أو حرقه دون تردد وإرسال شريط مصور إلى أهله يؤكد ما أقدموا عليه، أو إيصال أشلاء المخطوف الى أهله بالمرسال المضمون مع توثيق الاستلام...

كذلك اعتلت موجة الانتقام والثأر أعلى حدّها مُغرقةً معها الصالح والطالح، فالقيد كله ضد مجهول! كل يوم نسمع عن حادثة اغتيال

لأشخاص تحت حجة الأخذ بثأر قديم، إلا أنني أشك في ذلك لأن أهالي مدينة حلب لم يكن لديهم تلك العادات البالية، فقد كانوا يلجؤون إلى القضاء والقانون في فض مشاكلهم...

لكن ما حدث من فوضى في المدينة أدى إلى ظهور عصابات مرتزقة مهمتها القتل والتخريب والسرقة، من أجل نشر الخوف والهلع بين أهالي المدينة كي يتركوا منازلهم ومدينتهم ويرحلوا، وكان يزداد غضبهم وأعمالهم الوحشية المنافية لكل الأديان كلما تمسكت الناس بالصبر والإيمان من أجل البقاء في المدينة.

بين الحُب والحرب حرف أوقف التاريخ على بوابة الألم

بين الحُب والحرب شحطة قلم دفعَ ثمنها أبناء الوطن.

وأنا في خضم العراك ما بين الماضي والحاضر استنتجت أن لا شيء يدوم إن لم يتم احتوائه، وأن الصورة تبقى مختلفة عن الواقع مهما حاولنا إيجاد نقاط تشابه لا يمكن التطابق بينهما.

اقتربت ابنتي فرات ذات السبعة سنوات وعيناها تقطران حزناً وألم، وهي تسأل بكل دهشة قائلة:

ماذا حصل لجدي يونس يا أبي؟ ماذا هنالك؟ ولم كل هذا الازدحام هنا يا أبي؟ أريد العودة إلى منزلنا، لقد اشتقت إلى اللعب مع جود وأخته... جود حزين جداً، إنه يجلس وحيداً في الغرفة يبكي، ما به يا أبي!؟

لم أنطق بكلمة واحدة، كل ما فعلته أخذتها باتجاه حضني وضممتها
بشدة إلى صدري كأنني أحاول حمايتها من عبث الأيام القادمة!

رواية عاشت حلب

الموقف الثاني

السعادة من العطاء

عدت إلى ذكرياتي مرة أخرى، تحديداً إلى يوم أُعلن فيه انقسام حلب إلى قسمين، وحصول كل منهما على اسم يميز كل واحدة عن الأخرى، حلب الشرقية وحلب الغربية، أصبحت الطرقات الواصلة بين المنطقتين مقطوعة، مما أدى إلى ضغط مضاعف علينا نحن سكان المنطقة الغربية وصعوبة في العيش وتأمين أبسط ما يمكن من ضروريات... لقد أصبح التواصل بينهما بمعابر ضيقة يمر منها الأفراد الذين يرغبون التنقل بين المنطقتين، وهذه المعابر خاضعة للتفتيش من كلا الطرفين، وتكون مفتوحة في أوقات محددة يُعلن عنها حسب الحالة الأمنية لكلاهما.

كانت الحياة آنذاك تتجه نحو الموت البطيء، فكل يوم يموت شيء فينا دون أي ينزف منّا قطرة دم واحدة!...

في المنطقة الشرقية المواد الغذائية من خضروات، فاكهة، لحوم، ألبان وأجبان ... الخ، أكثر انخفاضاً بالسعر عن المنطقة الغربية التي نقطن فيها، لذلك فكرت ذات مرة أن أذهب الى هناك بعدما أخبرني جارنا أبو الجود أنه دخل تلك المنطقة منذ فترة وجيزة، تسوّق من داخل سوقها ثم عاد بما لذّ وطاب بأسعار منافسة عما يوجد في منطقتنا، أصابتني الشجاعة يومها لخوض تلك التجربة والصراحة تُقال أنّ الحماس نال مني لمعرفة ما يجول هناك من أمور وأحداث بالإضافة إلى رؤية الواقع بالعين المجردة من الروايات والأقويل.

كان يوم الإجازة مناسب لتلك المغامرة كونه يوم عطلة رسمي في الدوام الجامعي، باقي الأيام ليست ملكي كي أفعل بها ما أشاء! هنا كل يوم له برنامج الخاص به، بالرغم من أنه لا يملك طريقة محددة ليمضي بسلام! هي هكذا... نعلم أن شيئاً ما سيحدث لكننا لا نعلم أين ومتى وكيف؟!

ارتديت أقدم ما عندي من ثياب لتلك المهمة، وانتعلت حذاء رياضي مريح لضرورات الهروب الفجائي لا قدر الرصاص والقذائف، كون الخط الفاصل بين المنطقتين عبارة عن حزام ناسف وقنابل موقوتة، مما جعل الشوارع القريبة منها متاهة تدخل فيها ولا تعرف هل ستخرج منها أم لا!

وطوال الطريق مبانٍ هجرها ساكنيها، مما حول الطوابق الأخيرة منها إلى ربوع خصبة قامت على استغلالها رجال قناصة من كلا الطرفين يصطادون الذبابة وهي تطير، مع العلم أنه وصلتنا أخبار عن قيام اجتماعات سرية يحصل فيها جلسات سمر ولعب ورق الشدة فيما بينهم عندما يريدون الاستراحة والترفيه عن النفس في أوقات الفراغ!

أما في حال تنفيذ الأوامر على تمشيط المنطقة يتحول الطريق إلى خط مشتعل يُلزم المرء بقطعه تارة بطريقة الوثب وتارة بوضعية الركض أو الزحف، كي يهرب من رصاصة قنّاص تُحلق بلا هدف مُعين! المهم أن يكون عُنصر متحرك، وكأن القنص مُبرمج لذلك، كما نراها في الأفلام الهندية تمامًا، أنت الآن حقك رصاصة...

لطالما سقطت دائمًا في المصائد التي حاكتها لي بنات أفكاري، فكل واحدة منهن تعرف كيف تصل بي إلى الوقوع في الهدف، يعرفن في كل مرة متى يتفقن معي ومتى يتفقن ضدي! وهذه المرة كانت الفكرة من ذهابي إلى الضفة الثانية هي الحاجة إلى توفير أكبر قدر ممكن من المال مقابل دفع بعض الديون المستحقة للبقال، والتي باتت تشعرني بالخجل والقلق كلما مررت أمام دكانه.

الحاجة تجعلك تنفذ أفكار جنونية، لا منطق لها ولا مبرر... وكلما كانت الحاجة ملحة كانت الأفكار خطيرة وغير آمنة.

عندما وصلت معبر الجهة الشرقية قامت إحدى الفصائل وهي خليط من الشباب المرابط عند البوابة بالتدقيق في بطاقتي الشخصية المهترئة، وبعدما تم التأكد بأنني غير مطلوب الى أي جهة كونية وبأنني شخص عادي برتبة مواطن ميؤوس منه سمحوا لي بالعبور، دخلت المنطقة المعنية بعد جهد جهيد وكنت مندهش لما رأيته ويا ليتني ما ذهبت! الدمار العشوائي في كل الأنحاء، وكل حجر مررت به كان يحكي قصة تختلف عن الأخرى، الشوارع الوعرة لفظت ما في أحشائها من حصى وتراب، والأوساخ متناثرة على الطرقات لا مكان مخصص لها لتجتمع داخله، فكل حاويات القمامة مقلوبة لصنع حُجرات حماية مضادة، والسيارات محروقة كسحها السواد فبدت كقطعة فحم متحجرة، أما باصات النقل الداخلي فكانت مصفوفة فوق بعضها البعض لبناء جدار فاصل بين المنطقتين، بينما الأعلام السوداء الموزعة في كل زاوية وركن، أخبرتني بأنني على كوكب آخر لم تطأ قدمي بعد...!

رأيت رجال غريبة الملامح لا تشبه وجوهنا! دلت بأنهم من أصقاع العالم بأكمله، فبالرغم من لحاهم الطويلة استطعت أن أخمن من أين أتوا، بعضهم من العرق الأوروبي يملكون بشرة بيضاء وعيون ملونة وأجساد ضخمة لربما أتوا من ألمانيا أو الدنمارك، وبعضهم من الطرف

الآخر من الكرة الأرضية، من جهة وسط آسيا بلاد أفغانستان

كازاخستان، لا أدري!

رأيت أيضاً أصحاب البشرة الداكنة الذين أتوا من جنوب أفريقيا أو ربما من أمريكا! كانوا جميعهم يكتحلون بالسواد، ويضع كل واحد منهم حزام من الذخائر حول خصره، ويلف رأسه بوشاح مكتوب عليه اسم الجبهة القتالية المنسوب إليها...

ازدحام شديد من مختلف الأعراق، وكأنّ الكعبة الشريفة انتقلت الى هنا وأفواج الحجيج ترغب في أداء الفريضة...!

كان هناك لوحات متفرقة على مداخل الشوارع تدل كل واحدة منها على اسم الفصيلة المسيطرة في المنطقة، بالإضافة إلى العبارات المكتوبة على ما تبقى من الجدران، والتي تدعو للتحريض والتفرقة عبر دس السموم في نفوس الذين آثروا البقاء في منازلهم، حيث اختاروا عدم الرحيل لعدة أسباب أولها الخوف من فقد ما يملكون، فالكثير من أهالي هذه المنطقة عملوا بجهد وتعب طوال سنين حياتهم ليتمكنوا من شراء أو بناء منزل صغير، وعندما حصلوا عليه صار الذي صار فلم يرغبوا بترك جهد عمرهم مهما بلغ الثمن.

أما الأطفال فقد كانوا يتسابقون بين الأزقة حاملين بأيديهم عصا خشبية، والبعض منهم يلعب الكرة داخل ملعب صنع من الحجارة المتساقطة هنا

وهناك، ومنهم من كان يعبث بأشياء خطيرة لا تخصّه كالأسلحة المنتشرة في كل مكان! فتلك المحظورات بمتناول الجميع بلا استثناء من كبير وصغير، ومن الخادم الى الأمير...

شعرت يومها أني في إحدى الألعاب الالكترونية أتنقل فيها كطفل سرق الشغف براءته ثم هرب...

من الصعب جدًا نسيان ذلك اليوم فقد حزنت كثيرًا لما شاهدته في تلك المنطقة المنكوبة، لكن طلبات زوجتي حولتني حينها إلى رجل آلي مبرمج على عمل ما أنا قادم من أجله، فقد ملئت بيسان اللائحة بقائمة طويلة من الطلبات، وكلفتني أن آتي بما كتبتة وقد تأملت بأن يكون كل الأشياء متوفرة هنا في المنطقة الشرقية.

لذلك توجهت سريعًا الى سوق الخضار والأغذية، لقد كانت أسعار السلع مدهشة جدًا لشدة انخفاض سعرها، يوجد فرق شاسع بين أسعار السلع المتواجدة في المنطقتين! حينها لم أستطع مقاومة هذا الإغراء فقامت باغتنام تلك الفرصة والاندفاع إلى شراء كل المتطلبات التي دونتها بيسان.

تركت السوق بعدما نفذ كل المال الذي كان بحوزتي، وامتألت يداي بأكوامٍ من الأكياس المختلفة، لم أكن أقدر على حمل المزيد من الأغراض، بتُّ أسير كالبطريق أميل على جهة اليمن واليسار...

توجّهت الى المعبر قاصداً الخروج من المنطقة الشرقية لإتمام العملية عبر الولوج الى المنطقة الغربية، وإذ كان هناك طابور بشري طويل على مدّ ناظري، وصراخ من كلمات غير مفهومة يآف الحشد بشريط من الأوامر...

اقتربت أكثر لكي أجس النبض هناك، عرفت أن اللجنة القيادية في المنطقة قررت لتوّها منع تسريب أي مادة غذائية بشكل نهائي، حيث قامت بمصادرة كل الحمولات العينية، وبالتالي ممنوع خروج أي شخص يحمل كيس واحد!

والاعتراض لذلك الأمر يعتبر عصيان، وقد رأيت بأمر عيني كيف اعترض أحدهم عند خروجه من باب المعبر حين أصر على أخذ مشترياته معه وحملها بعيداً، حيث التف حوله عدد من المسلحين بينما قال له قائدهم:

علي أن تقرر يا رجل، فأمامك خيارين... إما أن تترك الأغراض كلها كما أتى الأمر أو سنضطر إلى اعتقالك، وعدم السماح لك بالخروج من تلك المنطقة، ولا تسأل كم مدة الاعتقال! لأن هذا يتوقف على مدى استجابتك لتعاليم الدورة و...

وقبل أن ينهي كلامه كان الرجل قد ترك مشترياته أرضاً واختفى ذاهباً
إلى المنطقة الأخرى بقلب مكسور انتشرت شظاياها داخل صدره،
واضعاً يده على روجه علّه يمسح جراحها!

نظرت حولي حينها وأنا ألفت في أرضي 360 درجة... أتساءل ماذا
أفعل بتلك الحمولة الغير مُرخصة؟ كيف سأتخلص منها بطريقة جيدة!
كنت أبحث عن شخص أعطيه الأكياس بدلاً من رميها على الأرض،
كنت أريد أن يستفيد منها أي أحد هو بحاجة لها، لكن دوري في التفتيش
كان يدنو فرداً بعد فرد والوقت قارب على إغلاق باب المعبر!

ركنتُ بضاعتي إلى جانب الطريق ثم جلست القرفصاء، لم أكن أدري
ماذا أفعل أو كيف أتصرف؟! وكالعادة كانت بنات أفكاري تلف حولي
لباسها الشرعي حاجباً عني الرؤية الواضحة، وكل واحدة منهن تقذف
بكلمة أو كلمتين: لائحة الطلاب، بيسان، المنطقة الغربية، الشرقية،
المعبر، جاء دورك، ذهب الراتب، الأكياس، قم، اذهب، لا تذهب....
وبينما كان رأسي يلف ويدور دنا من مسامعي صوت نسائي ينادي
باسمي وكأنه نسمة من نسائم الجنة:

أستاذ شريف.... أستاذ شريف

تقدمت نحوي امرأة يكسوها السواد لم أعرفها بادئ الأمر، إلا أن
صوتها لم يكن غريباً عليّ! كنت أقف مدهوشاً، الصوت مألوف بينما

الشخص غامض، ثم بدأت بنات أفكاري عرض احتمالات عليّ بمن تكون تلك الشخصية؟ لكن بناء على الصوت رجحت بأن تكون أم حسين التي تعمل في كافتيريا الجامعة، وقد أكدت لي قائلة عندما وقفت أمامي قائلة:

أستاذ شريف أنا أم حسين ألم تعرفني؟

أجبتها بحذر: عرفتك من صوتك، لكن لم أنت هكذا مكتسية بالسواد؟! كان ردها: هنا يا أستاذ شريف غير مسموح بخروج النساء إلى الشارع إلا بهذا اللباس الذي تراه أمامك، بحيث لا يظهر شيء من معالمهنّ، وعندما أخرج من تلك المنطقة مبتعدة عنها أقوم بخلع هذا الزي... ثم تابعت تسألني: لكن قل لي لم أنت هنا؟! وماذا تفعل بالتحديد؟ لم أصدق حينها ما حصل! فقد أردت حل لمشكلتي قبل انتهاء الوقت، وها ذا الحل يقف أمامي... أذكر أنني طلبت منها أن تأخذ الأغراض عني لما بدر من أوامر جديدة تمنع بإخراج أي منها، بل قمت بالإلحاح عليها كي تأخذهم لما تحمله أم حسين من عفة نفس كبيرة بالرغم من حاجتها لهم، فهي سيدة لم تطلب يوماً شيئاً من أي أحد حتى وإن كانت في أمس الحاجة له، حتى أنني طوال سنوات عملي معيد في الجامعة لم تشتكي أو تتذمر من أي حالة سيئة تمر عليها، كانت تأتي لتعمل عملها بهدوء وترحل...

تلك العفة بكل معانيها نادرًا ما نراها حولنا أو ربما انقرضت ونحن مشغولون وراء كسب أكبر ما أمكن من أشياء مادية. أخذت أم حسين الأكياس وكانت تقطر خجلًا قائلة لي: هذا كثير علينا يا أستاذ! سوف أقوم بتوزيع تلك الأشياء مع جيراني، أعرف أشخاص لا يملكون قوت يومهم وهم مصابون جسديًا لا يستطيعون العمل لكسبها... أشكرك كثيرًا يا أستاذ شريف و عوضك الله بالأحسن.

شعرت بفرحة أم حسين على ما نالت من رزقٍ طيب في وقت الشدة، وفي الحقيقة أنا فرحتي كانت أكبر والله أكبر! ولكل امرئ نصيب من الدنيا لا بد أن يناله بعد حدوث السبب.

خرجت من المنطقة الشرقية بسلام ودعاء أم حسين يُحيط بي من كل جانب لم أكن أريد شيئًا منها سوى الدعاء... وحده الدعاء في هذه الأوقات الحرجة يشفي جرح الروح ويقوي النفس، وخاصة إن كان من شخص أبدى اهتمامًا لك ولو بلحظة، وهذا يعتبر عامل مهم من عوامل نشر السعادة، ولكن للأسف لا يبالي به الكثيرون لأنهم يجهلون القيمة الثمينة للدعاء.

السعادة سلسلة من العطاء أولها إبتسامة وآخرها حلقة مفتوحة اليدين تدعو للخير والرضى.

عندما ابتعدت عن المعبر حاولت الاتصال مع بيسان عدة مرات
لأخبرها ما حصل معي حتى لا تنصدم حال وصولي إلى المنزل وأنا
فارغ من أي طلب كتبتة في اللائحة، لكن الإتصالات مزاجية في حلب،
وحينها لم ينجح التواصل بيننا بشكل كبير بالرغم من دفع الفاتورة على
دوز بارة! لقد سمعت صوتها آتٍ من جب عميق:

ألو! شريف! هل انتهيت من شراء طلبات القائمة؟

بيسان سألتني عن المشتريات قبل أن تسأل عن سلامتي! هذا وإن دل،
دل على إمكانية تغيير قائمة الأولويات لدى أي شخص بحسب الظرف
أو الموقف الذي يمر به... أما أنا فلم أستطع أن أعطيها أي جواب،
فالخط انقطع قبل أن أتفوه بأي كلمة.

كنت أود إخبارها أن تُعد لي الحَمَّام الساخن إلى حين عودتي إلى
المنزل، إذ كان لا بد أن أستحم بعد رحلة السفاري تلك، لكن يا ترى هل
كانت ستعده بعدما تسمع فشل المهمة؟ أشك في هذا!

بعد انقطاع الكهرباء والماء بات الاستحمام بمياه نظيفة ساخنة صعباً
للغاية، فقد أصبح تحضيره يستغرق وقت وجهد كي يكون جاهز
للمباشرة، إذ لا بد من وجوب تسخين المياه المعبأة سابقاً والمخصصة
لاستخدام التنظيف في طنجرة كبيرة على فرن الغاز إن وُجد، وإن لم
يتوفر الغاز لتسخين المياه يتم إلغاء عملية الاستحمام، ثم خلط المياه

الساخنة في جرن الحمّام مع مياه الوسط المتوفر، وباستخدام الطاسة التراثية المصنوعة من النحاس والمنقوشة نقش يدوي بالزهور والرسومات الناعمة تقوم بصب المياه والاستحمام بشكلٍ تقليدي قديم، وإن لم تتوفر الطاسة النحاسية بالإمكان استعمال علبة بلاستيكية وينتهي الأمر.

ليست مشكلة أبداً أن نستبدل أشياء بأشياء طالما يتم الحصول على الحاجة التي نريد، المهم أن نعرف كيف نتأقلم مع كل الأوضاع كي نستطيع مواصلة العيش.

كان فصل الشتاء الماضي بارد جداً، لا أعرف إن كان هو كذلك حقاً أم عدم توفر المحروقات من جهة والكهرباء من جهة أخرى جعله بارد بهذا القدر! فبعد تخريب المحطة الكهربائية الكبيرة ودمارها غرقت مدينة حلب في ظلامٍ دامس وبردٍ قارص، كون الكهرباء لها دور فعّال في الكثير من الأحيان في نشر الدفء عبر السخانات الكهربائية المشعّة، بالإضافة الى أنّ الحصار القائم على المدينة وإغلاق الطرقات الدولية جعل من تأمين مادة المازوت لأجل التدفئة أمر صعب جداً مما ضاعف من سعر اللتر منه إلى حد لا يُطاق!

لم يبق سوى الغاز كي يكون المنازع القوي لتلك المهمة، ناهيك عن الطبخ الذي يلزم الغاز أيضاً مما حوله إلى مادة مطلوبة بشكل خرافي!

بالرغم من أن طريقة الحصول عليه تعتبر سهلة فهي لا تتطلب سوى تسجيل الاسم ورقم الهاتف لدى مختار الحي بموجب دفتر العائلة مع إدرجه بفيتامين واو (واسطة) إلا أنه قد يتأخر يوم توزيع الجرار الممثلة إلى أجل غير مسمى!

وعند غياب الغاز لشهور طويلة لم يكن أمامنا سوى الحطب المنافس الأقوى لكل ما سبق، فهو مصدر متوفر في الشوارع وفي كل مكان. كان مشهد الرجال وهي تقوم على تقطيع الأشجار المتواجدة على الرصيف عادي جدًا، وتكسير المقاعد الخشبية في الحدائق بغية حرقها داخل المدافئ من أجل نشر الدفاء والطبخ عليها أمر لا نقاش فيه! لم يكن أحد يعترض على مسألة قطع الأشجار، فالبرد ظالم لا يرحم وتجّار الأزمات الذين يستغلون لهفة المواطن أظلم.

لكن في المقابل حصل شيء لم يكن في الحسبان، فقد ارتفعت أسعار المدافئ القديمة التي تعمل على الحطب إلى فوق الوصف بعدما كانت مرمية في المستودعات، أو أفضل ما هنالك كانت مجرد قطعة أثرية مكونة في إحدى زوايا الصالة.

لقد مر علينا أيام صعبة لا يمكن نسيانها بسهولة، ولا نعلم ما سيمر علينا من ظروف قادمة! هل نقدر تجاوزها كما تجاوزنا الذي قبلها؟! أم سنموت جميعًا بعد قليل!؟

كنت عائد إلى المنزل وأنا أجرّ ذبول الخيبة خلفي بعد الفشل الذريع الذي لحق بي جراء ذهابي إلى المنطقة الشرقية، دخلت إلى باحة شرود واسعة، وصلت إليها بعدما ضاقت الحال عليّ وعلى الكثير مثلي من الطبقة العاملة، حال لم نمر عليها من قبل، الطبقة الوسطى أمست فقيرة والفقيرة باتت معدومة...

ومع ذلك كله هناك طبقة من المجتمع تعيش فوق الريح، عددهم قليل نعم ولكنهم موجودون بيننا وحولنا، قاموا على استغلال الوضع الراهن والسيطرة على السوق الاقتصادية من خلال احتكار البضائع الغذائية واللعب بأسعارها كما تهوى نفوسهم، لقد تخلوا عن ضمائرهم ومبادئهم مقابل جمع أكبر كمية من المال، لم يعد مهم لديهم مصدر المال، المهم أن يأتي بأي طريقة كانت.

انقطعت جولة شرودي قُبيل وصولي الى مدخل حيينا، حيث استوقفتني شابة هيفاء القوام شقراء اللون، يلف حولها خليط عطور من الفاكهة الاستوائية والفانيليا، وهو ينبعث من خصلات شعرها مسافة مترين وشبر، هذا النوع من العطور يكون بالعادة تعبئة في زجاجات صغيرة من ماركة تحمل اسم معروف جيدًا في حلب.

كانت تحمل بيدها مايك إذاعي ويُرافقها ظهور جماعي للمارة.... عرّفت عن نفسها بأنها من إذاعة بكرة أحلى!

لا أدري ما الذي جذبها إليّ من بين كلّ الحشود وأنا في حالة رتّة!
لطالما قالوا لي أني أملك كاريزما نادرة مرصّعة بالجاذبية المقنّعة
والسحر الذي بمقدوره التأثير على الآخرين بالرغم من ملامح وجهي
الطفولية، فلا أحد يمكنه مقاومة تعابير وجهي عندما أريد التكلّم أو في
حال كنت صامت، وذلك برأبي نعمة وهبة إلهية تجعلني في رتبة
التمييز... لكنني في تلك اللحظة كنت مُحبط، لم أع تماماً ما الذي يدور
حولي بعدما عدت خائب من رحلتي الصباحية، وكأني في فقاعة أمل
كبيرة ما لبثت أن ارتفعت قليلاً ثم انفجرت لأسقط بعدها في مستنقعٍ من
الأحلام الضحلة.

داهمتني البنت الجريئة (واحدة من بنات أفكاري) وأصرّت عليّ
بالسماح لفتاة الإذاعة في تبادل الحديث معي بلسان كل حلبي عسى
ولعلّ أن يصل الصوت عبر الأثير، فكان لها ذلك ...

اقتربت مني المذيعة لدرجة الالتصاق، ظننت للحظة أنني واقف في
باص النقل الداخلي! ثم وضعت المايك في فمي وبدأت بعملها قائلة:

واحد ... اثنان ... ثلاثة تسجيل، اسمك لو سمحت؟

أجبتها: مواطن عادي

سألنتني: لونك؟

قلت لها: اللون الرمادي

عادت وسألت: ما هي أحلامك؟

أجبتها: السلام والأمان

استمرت بالأسئلة قائلة: ما هي طلباتك؟

أجبتها بلسان كل مواطن حلب: بيتي والدكان!

ثم سألتني سؤال وكأنها لا تعرف إجابته! قائلة: كيف الأوضاع؟

نظرت إليها بصمت، لم أعرف بما أجيب! عن أي أوضاع تتحدث؟

قامت بتغيير السؤال إلى سؤال ظننت معه أنها آتية من كوكب الزهرة،

قائلة: ماذا تأكل؟

قلت لها: خبز يابس

سألتني عن إحساسي!

أجبتها: أشعر بالغصة والنفس محبوس

ثم أتتني بسؤال آخر: كيف تعيش؟

أجبتها على لحن أغنية عمرو دياب: أنا عايش ومش عايش!

وضعت يدها على أنفها قائلة: ما هذه الرائحة الكريهة؟

قلت لها: الماء مقطوعة والكهرباء ممنوعة!

وقبل أن تسأل المزيد رفعت يدي بإشارة لها على نهاية اللقاء، فما نفع

الكلام إن لم يكن هناك أذان صاغية؟! إلا أن جدتي رحمها الله كانت

تقول: الكلمة كنقطة الماء، بإمكانها أن تحفر الصخر وتفتت الحجر مع مرور الزمن.

ذاك الحجر يا جدتي وليس البشر! التعامل مع البشر بات صعب جدًا، بل مرهق لدرجة تجعلك تنهار مستسلم مقابل أشياء تحبس أنفاسك! تركت الحشود دون تعليق بعد أن أفرغت القليل من جعبتي، فبعض بوح الألم الى شخص غريب يعمل مفعول مخدر لنفسٍ أنهكتها ضغط الحزن وعبء التفكير، التفكير في كيفية تأمين كل ما هو ضروري في ظرف لا يتوفر أي شيء منه إلا يشق الأنفوس وطلوع الروح!

لم أكن أريد الرجوع إلى المنزل وأنا خالي اليدين من أي مادة غذائية مكتوبة في اللائحة، لم أكن أريد أن أرى الخيبة على وجه بيسان وأن ترى الخيبة على وجهي! كل ما أردته هو أن نأكل حبة بندورة، أن نتذوق طعم الجبن على الإفطار مع صحن من البيض المقلي، أن نأكل الزيتون بعد غياب وأن نطهو الفاصولياء الخضراء، أن أجلب لابنتي فرات إصبعين من الموز لا أكثر... لكن لا شيء من هذا حصل!

شارفت الشمس على المغيب بينما كنت أمشي متناقل الخطى، أفكاري كانت مكبلة من كل جهة، شعرت حينها أنني مقيد لا أستطيع أن أقوم بأي فعل وردة فعل، فكل طاقتي نفذت في ذلك اليوم ولم أعد أبالي بالغد!

لقد كان من الأفضل أن أكون متواجد في المنزل قبل قدوم الليل،
الأوضاع الأمنية ليست جيدة وكل امرئ عليه أن يكون حارس شخصي
على نفسه.

وصلت إلى البيت فارغ، فارغ اليدين، فارغ الأفكار، فارغ الأحلام،
فارغ من المال، فارغ من الأمل من الصبر من الانتظار... فارغ من
كل شيء!

وما إن فتحت باب الدار حتى انهالت عليّ بيسان بزوبعة من الأسئلة
بعدما رأت يداي خاوئتين من عناصر القائمة المطلوبة، قائلة لي:
أين كنت شريف؟ لم تأخرت؟ أين الطلبات؟ ما بك؟ ماذا حصل؟
لماذا لا تتكلم؟ ما القصة؟!

النساء يرغبن دائماً في معرفة الأحداث دفعة واحدة، بينما الرجال نادراً
منهم من يريد التحدث! خبر واحد في اليوم يكفي مقابل أخبار العالم.
وبيسان لم تهدأ حينها إلى أن نالت مني كل تفصيل حدث معي في ذاك
اليوم، ثم نظرت تجاه لهيب الشمعة المتراقص لتسألني من جديد قائلة:
ماذا سنأكل على العشاء؟

لم أطلب منها أن تعد شيئاً على العشاء حينها، لأنه في الحقيقة لا يوجد
شيء في المطبخ كي تعده! فما كان بي إلا أن طلبت منها إعداد حراق
أصبعه بعدما عرفت بوجود القليل من الخبز اليابس لدينا.

حراق أصبعه صحيح أنها تحمل ذات الاسم لوجبة طعام أصلها من الشام، لكن في الواقع شتان ما بين الوجبتين، فهذه الوجبة تعد حاليًا وجبة الطوارئ والإنقاذ بأن واحد في حلب، إذ لا تتطلب سوى الخبز اليابس داخل وعاء ماء مغلي مع فص ثوم وبصلة صغيرة برفقة ذرة ملح والقليل من السمن إن وُجد وإن لم يتوفر السمن نقطتين زيت تقي بالعرض...

لطالما تساءلت عندما كنت صغيرًا لم هذه الوجبة تحمل هذا الاسم! الأجدر أن يكون اسمها حراق لسانه وذلك لشدة حرارتها وحرقتها للسان عند أول لقمة! لكن الجواب الشافي كان يأتي دائمًا من البنت الحكيمة -إحدى بنات أفكارى- إذ أنه قديمًا كانوا يأكلونها باليد لعدم توفر الملاعق فكانت أصابعهم تحترق عند تناولها.

الحقيقة جوابها مقنع ولا غبار عليه، الحمد والشكر لك يا رب على كلّ نعمة فضّلتها علينا.

قطع صديقي عابد حبل ذكرياتي قائلاً لي بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد من الحاضرين في العزاء، فأخبرني أن والدتي واقفة عند باب الغرفة، تقوم بالإشارة إليّ منذ برهة بينما أنا لم تنتبه لها قط!

قمت نحو أمي وقد بدا عليها ملامح القلق، فاقتربت منها معتذراً عن
عدم انتباهي ثم سألتها ما الحاجة التي جعلتها تترك مجلس النساء!
فأجابتنني قائلة:

ابنك يا شريف يبكي جائع، ويبدو أن حليب بيسان فرط في
ثديها بعد حالة الصدمة والحزن التي فيها، الرضاعة الطبيعية
لم تعد نافعة له، وهو ما يزال رضيع بحاجة لأن يشرب
الحليب، ولا يمكن أن يشرب غيره!
وقفت صامتاً أمامها أفكر كيف أخبرها أنني لا أملك القدرة على
مصروف حليب العلب! بينما راحت إحداهن -بنات أفكاري- تخبرني
قائلة لي:

عزيزي شريف الأمر لا يحتاج كل هذا التفكير، اطلب من
والدتك أن تبحث عن أم مرضعة بين المعارف والصدقات
علها تجد مرضعة بديلة ترضع ابنك بشكل مؤقت، ثم عسى أن
تهداً زوجتك ويعود الحليب إلى مكانه.

القيمة في الوقت

أغلب المشاكل والقضايا التي تحدث معنا يكون المال المحور الأساسي فيها، والسبب الرئيسي في نشوئها سواء كان حاضرًا أم غائبًا! وخاصة في الأزمات حيث وجوده يساعد كثيرًا على إيجاد حلول ترضي جميع الأطراف ليختصر معاناة وألم قد تتحول إلى مأساة فيما بعد.

أعرف أن تلك الأيام الصعبة ستمر كما مرت غيرها من الأيام، وحتماً مع مرورها ستأخذ أشياء من عمرنا وتعطينا بدلاً عنها أشياء، إنها عملية تبادلية قد لا تكون منصفة ولكنها تحدث كل يوم كي تستمر الحياة، فإن توقفت عن الأخذ والعطاء فاعلم أنك ميت لا محالة.

منذ بداية الأزمة أخذت أشياء كثيرة منحى مختلف عما كنا نعيشه، ومنها الطريق بين المنزل ومكان العمل، فقد بات مليئاً بالتضاريس الجغرافية التي لم نعتد عليها سابقاً! إذ لم يعد يوجد خريطة ثابتة يمكن الاعتماد عليها! فكل يوم ينشأ مسار جديد تخطّه الأحوال الأمنية الراهنة

للمنطقة، والطريق الذي سلكناه بالأمس قد لا يكون آمناً اليوم وطريق اليوم قد يكون خطيراً في الغد، وهكذا...

لذلك أنشأ أحد أفراد الطبقة العاملة مجموعة على الواتس اب أسماها طريق اليوم، يقوم أعضاء المجموعة في حال توفر النت لديهم على نشر مواقع الخطر الجديدة، ومواقع القناصة فوق أسطحه البنايات كي لا نسلك طريقها، ونشر أيضاً الطرق السالكة بأمان أو الأكثر أماناً لتجنب المخاطرة على الطريق، بالإضافة إلى نشر خط سير

المواصلات الذي قد يتعرض للتغير بحسب حالة الطرقات اليومية، مما دعا إلى قفز أجرة المواصلات إلى الضعف كون الطريق أصبح أكثر صعوبة وأطول مسافة!

لقد فكرنا أنا وبيسان ذات يوم أن نقوم أولاً بنزهة صباحية سيراً على الأقدام عبر طرقات فرعية توصل المناطق مع بعضها، ثم نفترق عند نقطة معينة ليركب كل منا المواصلات المؤدية إلى عمله، ونكون بذلك قد اختصرنا من أجرة المواصلات إلى نصف القيمة، وقمنا بجولة رياضية نستنشق من خلالها الهواء العليل، كنا نعلم أن ذاك المخطط سيستغرق معنا وقتاً أطول.

لذلك خرجنا باكراً برفقة زقزقة العصافير التي تسبق أي حدث كون دوام بيسان يبدأ من الحصة الأولى لهذا اليوم، فهي تعمل معلمة

صفوف المرحلة الثانوية للغة الفرنسية في مدرسة حكومية بالإضافة إلى أنها تعطي دروس خصوصية في المنزل للإناث فقط باستثناء جود جارنا في المبنى.

أودعنا فرات في ذلك اليوم عند جارتنا ليليان كي تذهب مع أولادها إلى المدرسة حين بلوغ الوقت، ثم اتجهنا إلى الحديقة العامة لنقوم في اختصار المسافة، دخلنا من جهة منزلنا من الباب الرئيسي للحديقة لنخرج منها إلى الطرف الآخر من الباب المطل على مبنى شركة الكهرباء في حلب، والذي بات فيما بعد معلم أثري مهجور.

كانت خيوط الشمس قد انتهت من غزل قلنسوة الصباح معلنةً عن بداية يوم جديد بعد ليلة رعدية ماطرة، الجو مشبع بالرطوبة المنعشة ورائحة التراب الزكية ملئت الأنفاس أمل وحماس.

لقد قامت الأمطار المتواصلة ليلة أمس في عملية تبنيّ غسل الشوارع والأرصفة بعد تيثمها من قبل عمال البلدية، فبدأت نظيفة وكأنها من مكان آخر غير الذي نحن نعيش فيه، لكن الأمر كان غريب بعض الشيء!

كانت الحديقة مزدهمة والناس تجري باتجاه واحد نحو النهر الذي يمر من خلالها، وقد كانت تفوح رائحة واخذه نخرت حاسة الشم لدينا، والأصوات ارتفعت لأعلى مستوى إلى قمة الدهشة بلا مصعد! دون أن

نشعر دخلت مع ببسان موجة الازدحام وسبحنا مع التيار البشري
المتجه إلى النهر...

لقد كان هناك أكوام من النفايات الغذائية مترامية على حافة ضفتي نهر
(قويق)، بصقها الانجراف الطيني على دفعات متتالية جراء العاصفة
المطرية الشديدة التي حصلت أمس، كم هائل من الأغذية الفاسدة
معجونة مع الطين والأوساخ كانت تملأ المكان، أكياس كبيرة من
الفواكه والخضروات بأنواعها لا تصلح للاستهلاك البشري!
الجميع وقف من بعيد يراقب المنظر دون أن يدلي بأي كلمة، كانت
الدموع تلمع في عيون النسوة أما الرجال فأخذت تضرب الكفوف
ببعضها على الرزق المرمي أرضاً هباءً منثوراً!
لم يتكبد أحد عناء النزول إلى الضفاف كي يلتقط الرزق المسكوب أمام
رغباتهم وجوعهم، فقد كانت مهمة التفتيش عن شيء صالح للأكل
ضرب من الجنون، والتعب المهدور والوقت الضائع بلا جدوى في
الحصول على لقمة نظيفة...

لقد فسدت كميات كبيرة من الخضروات والفواكه التي كانت في
المنطقة الشرقية قبل أيام جراء القرار المجحف الذي لزم بعدم خروج
أي منها إلى المنطقة الغربية، فرُميت في النهر من طرف منطقة بستان

القصر حيث جرفتها مياه الأمطار الغزيرة لتحط على ضفاف النهر في
الحديقة العامة.

كان المنظر مؤلم وحزين أن تكون أمام أصناف من الطعام تشتتها
نفسك ولا يمكنك تناولها، لكن ما قيمة المراقبة إن لم يتغير شيء؟! فكلما
طال التحديق في الأمر طال الألم والقهر.
في بعض المواقف لا مجال لفعل أي شيء سوى الانسحاب، وهذا ما
حصل!

لقد دار كل شخص ظهره للمشهد كي يتوجه إلى عمله، وبدأ الواحد تلو
الأخر بالابتعاد عن الموقع، عدم الاكتراث كان سيد الموقف بالرغم من
الآهات التي أحرقت ببادر الحرمان.

الجميع يعرف أن هناك شيء أهم بكثير من الوقوف والمراقبة، هناك
العمل بجهد وكد للحصول على المال لمواصلة العيش، وعن أي عيش!
العيش بجوع، العيش برفقة البرد، العيش مع الخوف....

وبينما كنت أفضض إلى نفسي، همست بيسان بصوتٍ خافت قائلة:
شريف! لقد تعبت ولم أعد أستطيع المتابعة.

نظرت إلى وجه بيسان كان قد تغيرت ملامحه وبدى أصفر شاحب
اللون، تقطَّبَ جبينها وباتَ كأن الهواء يخنقها ثم غابت عن الوعي
متراميةً عليّ دون أن تنطق بعدها بكلمة!

استجمعتُ قواي لحملها وخرجت بها من دوامة الصدمة بصعوبة، ما أن وصلنا الى باب الحديقة حتى أوقفتُ سيارةَ أجرة متجهين بها الى أقرب مشفى غير أبه بقيمة أجرة التوصيل التي قمنا على ادخارها قبل لحظات والتي تضاعفت بسبب ضرورة الموقف فالمهم كانت صحة بيسان والاطمئنان عليها...

وصلنا أقرب مشفى في الجوار وكانت من نصيبنا مشفى خاص مختص نسائية وتوليد، وفي أول خطوة كان عليّ دفع قيمة الكشف الطبي قبل الفحص السريري من قبل الطبيب المختص، ثمّ توجهنا الى مخبر المشفى لأخذ عينة من الدم والبول كي يتسنى القيام بالتحليلات اللازمة، وبعد انتظار قرابة الساعتين وأكثر أتى دورنا...

اللهمّ لا حسد، فقد كان الوقوف أمام باب غرفة الطبيب أشبه بمسيرة نسائية تطالبنّ بحقوقهنّ...!! كنت الرجل الوحيد بينهن، لن أصدق طيلة عمري كيف وقفت تلك الوقفة! كنّ ينظرن إليّ بدهشة واستنكار وفي عيونهن مئة سؤال وسؤال، أغلبهن حوامل إن لم يكن جميعهن! بالرغم من الأزمة التي نمر بها ماتزال بعض المهن في أوج عملها، أولها طبيب النسائية والتوليد، الرجال يصبون كامل همهم في إقامة العلاقة الحميمة مع نسائنهن، وخاصة في تلك الفترة العصيبة! أما النساء فتحمّلن ثم تلدن والمسؤولية تكبر في تأمين المزيد من المال لسد قيمة

فاتورة الولادة في المشفى إلى تأمين الحفاضات والأدوية وهلم جرا...
والجميع يعرف حجم القضية الثقيل ومع ذلك يحملها!
فكرة إنجاب المزيد من الأطفال باتت فكرة تتطلب دراسة عميقة، بل في
هذا الطرف السيئ لن تكون فكرة جيدة أبداً! فهناك ألف طلب وطلب
عليّ تأمينه وكلها من الطلبات الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها
أو استبدالها... عقلي حينها انفجر من شدة التفكير.
أخيراً دخلنا غرفة الطبيب والتقينا الوجه الحسن، وعلى موجب نتيجة
التحاليل أخبرنا الطبيب سبب الحالة التي وصلت إليها بيسان من وهن
مفاجئ وغثيان، قائلاً مع ابتسامة عريضة:
مبارك سيدة بيسان، بحسب نتائج التحليل أنت حامل في الشهر
الثاني.

المُفاجأة أكلت لساني دون ملح، لقد كنت للتو مستنكر من
حالات الحمل التي تحصل في ظروف غير مواتية، وقمت على
لوم الرجال في ذلك وها أنا ذا واحد منهم!
حينها نظرنا إلى بعضنا البعض وتجمدت ملامح كلِّ منّا على خبر غير
متوقع، نحن من خمسة سنوات أردنا أخ أو أخت لفرات لكن سبحانه
وتعالى أجلّ رغبتنا الى حيثُ يشاء، ولا اعتراض على حكمه في جميع
الظروف.

غادرنا المشفى مع وصفة طبية تليق بالخبر ولك الحمد يا إلهي، عاندين إلى المنزل بسيارةِ أجرة للمرة الثانية... بنات أفكاري مؤكدات لي أنّ حساب السوق لا يطبق على حساب الصندوق كما قال الأجداد. وصلنا الى مدخل البناء وجارتنا أم الجود تقف أمامه، وهي تلهث في وضعية انحناءة مثل إشارة استفهام عجوز وحولها أكياس صفراء، كان منظرها مثل الدجاجة وهي تنفق صيصانها كي تتأكد أن الجميع حاضر لا غياب، ولم يهرب أحد منها. لقد رأتنا أم الجود نترجل من سيارة الأجرة فبدت تعاليم الدهشة على وجهها قائلة:

مرحبا حبيبتي بيسان، أراكم قد أتيتم بسيارة أجرة!!
وجهك شاحب... خير ان شاء الله، ما الأمر؟؟

سبقتني بيسان بالصعود إلى المنزل بعد رد السلام على جارتنا، ثم تركتني واقف معها، فاضطرت أن أخبرها سبب وعكة زوجتي الصحية، لتقدم لي بعدها التهاني والمباركات على هذا الخبر الجميل. كانت تقف حائرة تتساءل كيف ستصعد بكتاكيتهما إلى الطابق الخامس! وهي تتم بصوت مسموع:

يا إلهي...! يا مجيب الدعوات يا مُسَخَّر يا مُيَسَّر...

نظرة أم الجود نحوي وهي تتكلم دمرّت كلّ الحواجز التي بَنَيْتُهَا للهرب
من تلك المهمة، وابتسامتها الصفراء العريضة التي غلّت وجهها أوحثت
لي أني في مآزقٍ مُحْتَمٍّ جعلتني أمدّ لها يد المساعدة في حملٍ ما تقدّم وما
تأخر.

بعض الابتسامات فِخاخ، وحدهم المارون بسلام يقعون فيها.
يا معين أعنا، سهّل صعودنا ويسرّ أمرنا...

إنّه الطابق الخامس وما أدراك ما الطابق الخامس!؟

قديمًا كنّا نُجذِي حَسَنًا بسكان الطوابق الأخيرة على المنظور الرائع الذي
يطلّ على الحديقة العامة في النهار، أما الأضواء الملونة المنبعثة ليلاً
من طريق النهر كانت تضيء منظر رائع كأنه لوحة فنية من العاصمة
باريس، لكن ما إن بدأت الكهرباء بالانقطاع والأمان بالغياب بات سكان
الطوابق الأولى والثانية أوفر حظاً، لأن الطوابق الأخيرة باتت معرضة
أكثر لخطورة القذائف العشوائية أولاً، أما ثانياً فالمصعد لم يعد في
الخدمة نظراً لانقطاع الكهرباء المتواصل.

لذلك كوننا كنا نقطن في الطابق الرابع اتبعت سياسة القوة من التجزئة
أي أجرى شراء طلبات المنزل لتكون أخف في الثقل وأسهل في الحمل
فأكون بذلك قمت بتوفير طاقتي لعملٍ آخر.

ونحن نصعد السلالم أخذتُ أم الجود التبريرات لها منشاراً لتقطع الوقت
والجهد معاً، روت لي أن الملل لازمها لفترة سابقة حتى ملّت منه
فأرادت قتله بحياسة كنزات صوفيّة، ولقد اتفقت مع صاحب محال الذي
يتوسط حيناً بأن تعرض عنده إنتاجها من حياكة الصوف مقابل نسبة
على البيع لكلّ كنزة تُباع في محلّه...

عرفتُ حينها نوع الحمولة، إنها كرات من الخيوط الصّوفية الملّونة
تتدر من فصيلة التسلية مع وارد إضافي للسيدة أم الجود لكن أظنّ أنها
بالغت كثيراً للكمية التي اشترتها فهي تكفي لمئة كنتكوت ... هههههه
أقصد كنزة.

وفي سياق الحديث كانت قد أخبرتني أن زوجها أبو الجود مدّ بسطةً
على الرصيف عند دوّار الموت (دوار كبير يقع مدخل مدينة حلب من
الناحية الجنوبية و سُمي بدوار الموت لكثرة الحوادث المرورية التي
تقع حوله حاصداً أرواح صاحبيها) يبيع عليها البضاعة المتبقية في
منزلهم من الأدوات المنزلية الزاجية بعدما تدمرت دكانه من جراء
الحريق الكبير الذي نهش سوق السبع بحرات القديم، فأغلب أصحاب
المحلات الذين كانوا هناك انتقلوا الى دوّار الموت يعرضون بضائعهم
على الرصيف، أو في كشك صغير من صفائح التناك أو في خيّمات
قماشية أعدوها لذلك الغرض.

وأنا أصعد طابق تلو الآخر حاملاً الأكياس كنت ألتقط أنفاسي التي

تساقطت على السلم، أما هي كانت ما تزال تتحدث قائلة:

الحمد لله على الصحة والعافية، المهم كلنا بخير.... أنت تعرف

يا شريف أن وارد واحد لم يعد يكفي مصروف البيت في هذا

الزمن، على كل فرد من العائلة العمل والمساعدة قدر الإمكان،

وأنا لا أعرف سوى حياكة الصوف كي أشارك أبو الجود في

مصروف البيت، نحن لا نسعى لتوفير الكماليات بقدر ما نريده

هو تأمين الأساسيات والله المستعان....

أخيراً وليس آخراً وصلنا الى القمة، قمة البناء المنشود وصوت أم

الجود أخذ يُرْتَلّ:

جود يا جود... افتح الباب لقد جئت.

وإذ بجود باشا البيك يفتح الباب لأمه كأنها سلطانة زمانها وأنا لا حول

لي ولا قوة لأبيّ تعليق، اكتفيت بوضع (لايك) وبنات أفكاري يتخبطنّ

في أمواج الغضب يتسائلن:

ما دام حضرة جود في المنزل، لم لن ينزل؟!!

كأنّ أم الجود انتبهت لضجيج البنات فأجابتهنّ قائلة:

جود اليوم حرارته مرتفعة ولا يملك القدرة للحراك.

(لايك) آخر لتبرير دلعها لابنها جود بتقرير طبيّ معشوش.

وما كان عليّ سوى أن أقول لها: عليه ألف عافية حبيبي جود.
ها قد عُدنَ للشغب هذه المرة مع بعضهن البعض، كل واحدة منهنّ
أرادت أن تدلي خطاباً تُثني بواسطته على سذاجتي....
بدأ البنت الواقعية قائلة:

ألم يكن بالإمكان تأجيل تنفيذ اتفاقية أم الجود مع صاحب
المحال إلى يومٍ آخر؟ إلى يوم يكون فيه جود باشا على أتم
صحته حتى تستطيع والدته الاستعانة به في حمل الأكياس إلى
الأعلى! أم أنّ أم الجود من بعد قتلها الملل سارعت إلى دفنه
خوفاً من أن يعود إليها مرةً أخرى؟!!

تابعت البنت المتمردة بقولها:

كلّ شيءٍ من حولنا مؤجّلٌ إلى إشعارٍ آخر، من الهدنة واتفاقية
السلام التي ثَقَّبَت أذاننا إلى رفع رواتب الموظفين التي يُفترَض
أن تكون ممسكةً بيد الدولار بقوة لتخطيم ارتفاع الأسعار معاً
على أساس يد واحدة لا تُصفق..

علقت على كلامهن البنت الحكيمة قائلة:

صحيح أن اليد الواحدة لا تصفق لكنها تصفع وبشدة!
تجرائتُ وقتها على بنات أفكارٍ وقطعتُ اجتماعهنّ، ثم اقترحت على
أم الجود أن تقوم بصنع مصعد يدوي خاص لرفع الأشياء بأن تربط

حبل تخين بدلوٍ من صنع البلاستيك أو القش، وجود -حفظه الله- يرفع لها المشتريات من أمام مدخل البناء إلى الأعلى وهو واقفٌ في الشرفة بواسطة ذاك الحبل والدلو أو العكس، بحيث يتم أيضاً بواسطته عمليات إنزال بكل سهولةٍ وطمأنينةٍ كالتخلص من كيس القمامة مثلاً...

ابتسمت أم الجود ابتسامتها المعتادة وقالت بمكرٍ ودود:

أفكارك دائماً خارقة أخي شريف، والخير بأن يتم على أكمل وجه وأنا بانتظار تنفيذ اختراعك عافاك الله.

فوراً أجابتنني إحداهن (بنات أفكاري):

يا حبيبي! في المرة القادمة الأفضل لك أن تفكر بصمت، ما كل ما يفكر به المرء يُقال، فقد تغير رأيك آلاف المرات في لحظة واحدة!

وما إن أراني أُجيب لطلب أم الجود متجاهلاً ما أغضب البنات، قائلاً لها: حاضر أختي أم الجود، لحظات ويكون المصعد اليدوي تحت أمرك وخدمتك.

(لايك) هذه المرة ثلاثي الأبعاد للسيدة ليليان المصونة، والحق يُقال إنها كانت تستحق تلبية طلباتها دون تردد، كونها احتضنت بيسان من بداية زواجنا، فهي من علمتها طبخ كافة أنواع المأكولات الحلبية، وهي من أعانها في تربية فرات، وهي من قامت بإدلاء النصائح لها في كافة

المجالات، كانت لها الأم والأخت والصديقة في الغربية... بالإضافة إلى الصداقة التي جمعت بين الأولاد، ففلذة كبدها جود في المرحلة الإعدادية هو المسؤول عن توصيل فرات وأخته جوري ذات العشرة سنوات إلى المدرسة ذهاباً وإياباً... لذلك كانت كل طلبات الست ليليان أوامر، أنفذها عن كامل طيبة خاطري.

تتحدّر السيدة ليليان من العائلات الأرمنية التي أتت من منطقة كيليكيا بعد انسحاب القوات الفرنسية في الربع الأول من القرن الماضي، والتي كانت تحتضن أعداد كبيرة من الأرمن حيث جاءت مجموعة منهم إلى المناطق السورية، وعائلتها كانت من المهاجرين الأرمن الذين وضعوا ترّحالهم في حلب.

نزلتُ مسرعاً إلى المنزل وأنا أهزّ برأسي كعلامة الإيجاب والرضى لتمتات الشكر التي هطلت عليّ من جارتنا أم الجود، الكلمة الطيبة تجعل منك شخص خارق مبدع نشيط جميل بطل شجاع... تجعل منك شخص لا تعرفه!

الكلمة الطيبة كفيّلة بأن تمدنا بالسعادة حتى وأن كنا في أعلى درجات التعب والألم.

عندما دخلت إلى المنزل كانت بيسان تتحدث مع والدتها على الهاتف، سمعتها تزف خبر الحمل قائلة:

أمي أنا حامل في الشهر الثاني ولا أعرف كيف حصل ذلك!!
جميعهنّ يقلنّ العبارة المشهورة عندما يحملنّ، لا أعرف كيف حصل
ذلك؟! ... ثم تابعت بقولها:

نحن جميعنا بخير لا تقلقوا، وأنتم كيف الأحوال عندهم؟ أنا قلقة
جداً عليكم، أحمد الله وأشكره أني سمعت صوتك ...
لم تطل المكالمة كثيراً حينها لأن الاتصال انقطع من جديد مع أهلها، فقد
كان الوضع لديهم مُلبّد بالغيوم أيضاً ويُندر باقتراب عاصفة هوجاء
كون اقتراب داعش من مشارف مدينة القامشلي بعد بسط سيطرتها على
مدينة الرقة، وجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية كما ورد في الأخبار
العالمية ومواقع التواصل المختلفة.

بعد دخولي المنزل بخمسة دقائق كانا المصعدان جاهزين لمباشرة
العمل واحد لجارتنا السيدة ليليان، والآخر للمدعو شريف حضرتي،
حقوق العمل محفوظة ولا بد أن ينال منها صاحبها على الأقل....
وبنات أفكارني عُدنّ وهنّ يُنشدنّ على نغمة أغنية شاطر... شاطر
للمغنية نانسي عجرم:

حاور على قدر حجم العقول

حاور.... حاور

حاور من كان له في الأصول

جاور.... جاور.

أتى صوت صديقي عابد من داخلي، وقطع عليّ ما كنت فيه من
ذكريات مع جارتنا أم الجود قائلاً لي:

عزيزي شريف هناك مثل يقول الحي أبقى من الميت، الفتى

جود قابع وحيد في الغرفة، وأنت هنا ولست هنا في مجلس

العزاء! جسّدك موجود وعقلك مسافر، جيد يا صديقي لو قمت

للتحدث معه حتى يشعر أنك بجانبه وتفكر به...

هناك مواقف يا صديقي لا ينفع معها التأجيل حيث تتطلب المساندة

الفورية، فكلما تأخرت في تقديمها فقدت قيمتها الفعلية مهما كانت كبيرة.

صحيح كيف نسيت جود في هذه المصيبة؟!!

شكرًا صديقي عابد لأنك دائمًا تعيدني إلى الواقع.

الاسم يعني التميز

عدت إلى مجلس العزاء بعدما جلست مع جود عشرة دقائق لا أكثر، لم أنطق أمامه بأي كلمة! ماذا أقول؟ لقد ماتت كل الكلمات الإيجابية التي بمقدورها أن تسند ذاك الصبي في مصيبتة! ولم يبقى سوى الأفكار الهزيلة التي جاءت بها بنات أفكاري لتضعها على رأس لساني، بيد أن صديقي عابد استطاع لجم التفوه بها في اللحظة الأخيرة! وصرخ عليهن غاضبًا، قائلاً لهنّ:

كفاكنّ تشم يا بنات، ألا تعلمن أن الأفكار السيئة تقتل صاحبها؟
قلن خيرًا أو اصمتنّ.

اللهم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، لا أعلم يا عابد كيف يمكنك مسك زمام الأمور بطرفة عين؟! وتبلي حسناً عندما تنجح في السيطرة عليها، فتلك المهمة باتت من صعاب المهمات بل من المهمات المستحيلة في هذا الزمن!

بينما زوجتي ببيسان إذا دخل في عقلها أمر ما، فمن الصعب التخلص منه إلى أن تحصل عليه، الواضح أنها لا تملك صديقًا مثلي اسمه عابد! حيث لها في ذاكرتي قصة السفرجل، ففي بداية حملها هدس عقلها بذاك النبات الموسمي المفقود، هي لم تطلب مني بشكل مباشر لكن حديثها المتواصل عنه كان واضح أن السفرجل قام على احتلال معظم تفكيرها! حيث أخذت تعد لي أصناف المأكولات التي يدخل في إعدادها هذا النبات، بداية من الكبّة السفرجلية التي تُعتبر من أذ المأكولات ذات فصيلة الكوبيات، إلى مربى السفرجل الذي لا يمكن أن يضاهيه أي نوع آخر من المربّيات، ناهيك على أن السفرجل يُؤكل كالتفاح لما يحتوي لفوائدٍ طبية، خاصة للحامل في أشهرها الأولى.... كانت لا تتفك بالحديث عن السفرجل وأصناف مأكولاته وفوائده، حديثها كله تحول عن هذا النبات العظيم الذي لا يزورنا إلا في السنة مرة! وغير محبذ بالنسبة لي بوجوده على المائدة! لكنه أصبح كنز من كنوز علي بابا آنذاك.

حينها قامت على نكز أفكارى إحداهن وهي العاطفية بينهن - بنات أفكارى - فألقت عليّ محاضرة صباحية قائلة لي:

ماذا دهاك يا شريف؟ إن اللبيب من الإشارة يفهم، زوجتك حبيبتك تشتهي السفرجل وإن لم تأكله ستظهر وحمة السفرجل

على الطفل، وأنا لا أضمن لك بيسان أين ستُطْفئ تلك الوحمة
عندما يبدأ جسدها بالغليان مطالباً ولو قضم لقمة صغيرة من
هذا النبات!

أجابتها حينها البنت الواقعية بحالة من الاستهزاء قائلة:

يحمد الله ويشكره ألف مرّة على أن زوجته نباتية لا تحب أكل
اللحوم بأنواعها، ماذا لو كانت تشتهي سيخاً من اللحم المشوية
(كباب أو شقف) أو أنها اشتهدت (معلق مطجن) أو أي أنواعٍ
أخرى من الصدور وأفخاذ الدجاج التي يحلم بها حضرته!
ليست إلا سفرجلةٍ واحدة والسلام.

تابعت العاطفية قائلة:

هيا قم يا شريف أنتَ لها، رجل المهمات الصعبة.
أعرف أنني بارع في المراوغة فيوم عن يوم كنت أهرب بطريقة زكية
ريثما زوجتي تغير رأيها لكن ذلك لم يحصل! حيث منعت عنها وصول
شعور عدم اللامبالاة لطلبها إن لم آتي بالسفرجلة، كون العمل هو
العائق وراء القيام برحلة البحث عنها، إلى حين وصلت إلى ضرورة
التحرك، فالوضع لم يعد يحتمل التأجيل أكثر من ذلك.
رحلة اكتشاف نبات السفرجل ليست سهلة البتة، كنا في فصل الشتاء
والسفرجل لم يكن أوانه، وهذا يعني إن لم أجده على إحدى الشجرات لن

أجدّه مطلقاً! فلم يعد أحد يقوم بتخزين مأكولات الصيف إلى الشتاء أو العكس، أمسينا نأكل محصولات كل موسمٍ بموسمه، لا داعي لذكر السبب فقد باتَ معروفاً يرعاك الله....

لكن كان عليّ أولاً أن أقوم بحلقٍ لحيتي الطويلة قبل نزولي إلى الشارع كي أتجنب أي نظرات هادفة أنا بغنى عنها، وبما أنني لا أنتمي إلى أي من الفئات صاحبة اللحي لا بد التلخص منها بأسرع وقت كون أي ملتحي بات شبهة عند الناس! في جميع الأحوال المواطن الحلبي له صفة لونية تدلّ على أي فئة هو وأن أكون رمادي ليس بالسوء أبداً كما يظن البعض.

إن مسألة حلق اللحية معاناة حقيقية في كل مرة أقوم بذلك، المياه باردة دائماً وغالبًا تكون الكهرباء مقطوعة ومع هذا كله أنهى العملية خلال عشرة دقائق، فقد أصبح لدي خبرة ومهارة بالقيام بها بالرغم من الظروف السيئة.

من أكبر النعم التي يملكها المرء هي خاصية التأقلم، أن تتبدل بك الظروف إلى الأسوأ ولا تعرف كيف تعيش معها هذا أمر صعب جداً، بل ويصل أحياناً عند البعض إلى حد التعب النفسي أو المرض الجسدي، البراعة في الحياة هي أن تستطيع العيش في جميع الحالات التي تتعرض لها، وغير ذلك فأنت تتحول إلى ميت حي.

كانت بيسان مشغولة في المطبخ عندما خرجت من الحمام، أنهيت ارتداء ملابسها متوجهة نحو باب المنزل لأذهب للبحث عن المطلوب! ألقى التحية على زوجتي بطريقة سريعة هروباً من أي تعليق أو سؤال، لكنها انتبهت على مظهري الجديد حيث اقتربت لتطبع رسمة شفاهها على وجنتي اليمنى، ثم سألتني إن كنت ذاهباً إلى الجامعة، فالوقت كان ما يزال مبكراً لبدء الدوام... أجبته بالإيجاب، وأنا أمسح آثار الجريمة قبل توثيقها.

نزلت الشارع دون أن أخبر بيسان بأني ذاهب أولاً في رحلة استكشاف سفرجلة، أسر عقلي أن أبقى هذا الأمر سراً بيني وبين بنات أفكاري... فقد يتعثر عليّ إيجادها! وهي إن تأملت الحصول عليها قد تنثير حاسة التذوق وذاك الأمر لن يُحمَدُ عقباه إن فشلت عملية البحث. هُنا قفزت أمامي إحداهن على غير عاداتها البنت المثقفة الهادئة، وهي غاضبة تصرخ عليّ أمامهن جميعاً:

أين أنت يا شريف من الوحمة...!!؟!! الوحمة ليست إلا عبارة عن تغيرات غير عادية تحدث في التخليق لبعض الأنسجة ومن الممكن أن تصيب نسيجاً ما في الجلد، فتكون نتيجة خلل ما أثناء تخليق الأوعية الدموية، وتتكاثر بشكل غير عادي في

مكان ما... أو تكون نتيجة خلل في الخلايا الملونة فتكثر في
منطقة ما لتعطينا الوحمة.

ثم أضافت بقولها:

إن ما نسميه بالوحمة ليس له علاقة بالوحم أو ما تطلبه المرأة
أثناء فترة الحمل، فالوحم ما هو إلا دلع سيدات، وليست الوحمة
مقصورة على نتيجة ما تأكله أو تشربه المرأة الحامل! وأنت يا
شريف يا مثقف ما أظن أنك تصدق تلك الخرافات!

أجبتها حينها بكل ثقة وفخر:

عزيزتي المثقفة أعرف كل هذا، لكني أريد أن أعبر عن مشاعري قبل
أن تشحّ ولو بحبة سفرجل... أريد أن أبرهن لحبيبتني أنني مازلتُ
المحارب المغوار ذو السيف البتّار، ما شأنك أنت؟ لم تغارين! اهدأي
قليلاً ودعيني وشأني رجاءً.

وقفت أمام باب المبنى وقبل أن أخطو أي خطوة إلى الخارج، فتحت
يدي إلى السماء دعوت ربي الكريم الجبار بالتيسير ورفع الشأن، وأن
يسد شهية زوجتي عن السفرجل إن باءت العملية بالفشل ويهديها
الصواب إن غابت الأسباب، ثم اتكلت عليه في تلك المهمة الصعبة.

كنت متفائل بأن أجد السفرجلة بكل سهولة، فحسب قانون الجذب الذي قرأتُ عنه في ذات فضول، أنّ قوة أفكار المرء لها خاصية جذب كبيرة جداً فكلما فكرت في أشياء أو مواقف سلبية اجتذبتها إليك...

وكذلك كلما فكرت أو حلمت أو تمنيت وتخيلت كل شيء جميل وجيد ورائع تريد أن تصبح عليه أو تقتنيه في حياتك قمت بجذبه إليك أيضاً، فإن قوة هذه الأفكار الصادرة من العقل البشري تجتذب إليها كل ما يتمناه المرء... لكن هذا الكلام يبقى هراء إن لم يُحرك ساكن! فمهما حلمت بالحصول على الشيء الذي تريده لن تحصل عليه إن لم تعمل أو تتحرك، الأشياء لا تأتي من تلقاء نفسها!

بعد السؤال عن الأحوال لأكثر من ثلاثة دكاكين بقالة، أيقنت منهم أن لا وجود للسفرجل في السوق... وإن وُجد سيكون سعره خُرافي، وربما بالعملة الصعبة كونه مادة انتهت صلاحية توفرها.

عندها قررت اللجوء الى سوق الخالدية المشهور في حلب لتوافر جميع ما تشتهيهِ الحوامل من المنّ والسلوى إلى لبن العصفور، وبطريقي الى هناك مررت من أمام القصر الوردي المطلّ على الحديقة العامة، تذكرت حينها أن له بستان صغير يحوي أشجار مثمرةً وعرائش ورد من جميع الأنواع أيام كانت الماء متوفرة لسقاية البستان...

وقفت أمام باب القصر أختلس النظر إلى المزروعات التي داخله علني
أتعثر بشجرة سفرجل هنا أو هناك! وإذ أشارت عليّ المتفائلة -إحدى
بنات أفكاري- قائلة:

لن تخسر شيئاً، نادي الحارس المُقيم واسأله عن حبة سفرجل،
عسى ولعلّ أن تكون بانتظارك لتأخذها معك.

وهذا ما حصل بالفعل، قمت بالمناداة بصوت عالي أنتظر خروج
الحارس الذي يقطن في القصر بعدما هاجروا أصحابه الأصليين الى
السويد.... صرخت قائلاً:

هل من أحد في القصر؟! هل هناك أحد!

ظهر بكل ثقة رجل ثلاثين العمر يرافقه شابان، بدا وكأنه صاحب
القصر الحقيقي، كان الجميع ملتحي بلحي ثخينة، ويمتلكون أجساد
ضخمة ذو عضلات مبرومة كالحلويات الشرقية المشهورة بها حلب
(مبرومة بالفسق الحلبى الفاخر) أجابني أحدهم بلهجة قاسية:

ماذا تريد؟ لمّ كل هذا الصراخ من الصباح!؟

كنت أرتعش من الخوف، لوهلة ما لم أعرف كيف أتدارك الأمر، ماذا
أقول وكيف أبدأ؟! كانت المتشائمة منهن تنعيني قبل أن أفتح فمي بأي
كلمة! لكن حينها تجاهلت ما سمعت منها وقمت على جمع قواي
المتناثرة، ثم برباطة جأش أجبته قائلاً:

منذ أسبوع وأنا أبحث عن حبة سفرجل ولم أجدها، فزوجتي حامل
أعزكم الله والسفرجل يدغدغ شهيتها بشدة، كنت أتساءل مع نفسي لو
أجد حبة واحدة في بستان القصر أكون لكم من الشاكرين.
غلت ضحكات الشباب بطريقة ساخرة، بينما كنت بكامل استعدادي لأي
ردّة فعل سيئة قد تصيبي! كل شيء بات متوقع في هذا الزمن، لم يعد
هناك أي قواعد أو أساس نبني عليها علاقاتنا مع الآخرين.
لكن لم أتوقع أبداً أن يقترب أحدهم نحو بوابة القصر ويفتح لي الباب
قائلاً:

ادخل إلى البستان وابحث بنفسك، إن وجدت طلبك خذه وارحل
من هنا.

شكرته على كرم التلبية، من ثم دخلتُ باحة القصر مُتضرعاً ربي بأن
يسهل أمري ويُسر ما جئت من أجله...
كانت تلك أول مرة أدخل فيها باحة القصر وأشاهد القصر عن كثب،
كم هو فخم هذا البناء المعماري الرائع! عمره من أوائل عقود القرن
الماضي، عاصر الحرب العالمية الثانية والاحتلال الفرنسي للبلاد من
ثمّ الجلاء عنها، بعده أيضاً كان شاهد على الانقلابات المتوالية في
الحكم التي شهدتها مدينة حلب حينها، وحتى الآن ما يزال يُثبتُ صموده
ويقف شامخاً الى تلك اللحظة...

وهذا اللون الوردِيّ الساحر للأحجار الرخامية الأنيقة المزينة بالنقوش
الناعمة كالإيتامين، يُخبر المشاهد بأن حورية من حوريات حلب قامت
بتطريزها بواسطة خصل شعرها المَحَنَة بالحَنَة الحمراء، لتَجعله يعيش
في قصر الأحلام أو في قصر من قصور قصص رحلات أليس في بلاد
العجائب...!

آه لو كنت أملك تلك التحفة الفنية، ما كنت تركتها للزمن الأرعن، لكن
"لو" تفتح عمل الشيطان وأنا وقتها لا عمل لي هنا سوى ما جئت
لأجله!

صوت حاد نادى عليّ فقطع حبل الأمنيات، قائلاً:

ما بك يا أفندي؟! قلنا لك خذ طلبك وارحل، لم نقل لك اعمل
جولة سياحية في القصر!

اعتذرت منه على التأخير وطلبت المزيد من الوقت كي أنهي المهمة
وأخرج، أخذت البستان تحت ناظريّ وبدأتُ التفتيش شجرة تلو الشجرة،
كان هناك في الزاوية الشمالية شجرة سفرجل تنتظر تشريفي، اقتربتُ
منها أكثر فأكثر حتى يتضح لي ما رأيت! كانت عارية من الأوراق
تقريباً إلا ما ستر نهاية أغصانها الهزيلة، وضعت رأسي بين الفروع
ونظرتُ من أسفلها إلى أعلاها، سألني عابد:

ما هذا الذي أراه بين السيقان يا ترى؟

ثم أجاب قبل أن أجيبه:

إنها كرة ضئيلة بارزة بخجل، عليها طبقة سميكة من الغبار
والشحار ...

حمدت لله حمداً كثيراً على ستره ورزقه، لقد وجدت حبة سفرجل واحدة
صغيرة جداً، كانت مختبئة بين الأوراق اليابسة التي صمدت مع تقلبات
الطقس، وبهزة خفيفة للشجرة كانت السفرجلة على صدري بين
أحزاني مُرحباً بها أجمل ترحيب ومسهلاً لها طريقاً للحبب....
إنها كنزٌ ثمين لدرجة أنها أغرتني ألنقط معها صورة سيلفي والقصر
الوردي خلفي، ثم هَرَعْتُ مسرعاً نحو البوابة وأنا أشكر الشباب على
كرم ضيافتهم وحسن استقبالهم.

ولسعادتي الكبيرة بها نال مني الطريق الى منزلنا خمسة دقائق، كنت
أهرول بسرعة كبيرة وأنا في حالة عدم تصديق بأني حصلت على هذه
الدرة الصفراء! صحيح أنها صغيرة ويابسة كما ذكرت، لكن ما تزال
تملك الاسم ذاته ألا وهو سفرجلة ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك.
الاسم يُلازم المرء أو الشيء من لحظة تكوينه الى فنائه، فمهما حاولت
الظروف تغيير صفاته يبقى الاسم كما هو لا يتغير.

وصلت إلى أمام مدخل البناء والفرحة تحيط بي من كل جانب، قمت بإرسال رسالة نصية إلى بيسان عبر الهاتف المحمول طلبت فيها أن تُنزل المصعد الصغير من الشرفة فهناك مفاجأة جميلة لها...
ثوانٍ وكان الدلو جانبي، وضعتُ السفرجلة المعتبرة في الدلو بعد أن قمت على تلميعها بكلتا يدي، أرفقت بعض الأزهار البرية التي قطفتها من أمام مدخل منزلنا، ثم أومأت برأسي إلى بيسان بأن ترفع الدلو إلى الأعلى، رأيت حينها الوجه البشوش الذي غاب عني أيام.
بينما البنت العاطفية التي كانت مستلقية تقرأ من قصائد نزار، همست مُبتسمة بنعومة مُلغمة داخل أذني قائلة:
تبدوان كروميو وجولييت يا عزيزي ...
كان أجمل ما هنالك إحساس نشوة النصر الذي شعرت به طوال الطريق وأنا ذاهب إلى عملي في الجامعة، أن تكون مصدر سعادة وأمان لشخص تحبه أمر رائع، بينما أن تكون عاجز أمام تأمين أي شيء فهذا شعور مؤلم لن تقوى روحك على تحمله إن تكرر.
انتهت قصة السفرجلة نهاية سعيدة، لكن نهاية ذاك اليوم لم تكن كذلك، وصلت يومها متأخر عن المحاضرة بثلاث ساعة، ظن الطلاب أنني لم آتي لسبب ما، فمن كان بيته قريب من الجامعة ذهب إليه ليعود في

المحاضرة التالية، ومن كان بيته بعيد عنها بقي ينتظر داخل الحرم الجامعي لصعوبة المواصلات والتنقل بين المناطق... كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا وميدان الجامعة مكتظ بما هَبَّ ودَبَّ، فهذه الساعة هي ذروة الازدحام بالإضافة إلى أنه يوم اختبارات فصلية من العام الدراسي للكليات الدسمة كالتب والفروع الهندسية، ما عدا ازدحام الشوارع المحيطة بها فقد كانت ممثلة إلى أقصى حد من الناس والسيارات.

سمعت وقتها صفير آتي من بعيد ثم قوى بسرعة جنونية، لدرجة تراقص معها زجاج النوافذ ثم ما لبث أن تحول إلى اهتزاز عنيف أوقعه قطع مكسرة... لقد كانت طائرة حربية رأيتها بأعين عيني رمت بأول صاروخ فوق الساحة ثم علت، دارت في صدر السماء ثم انخفضت من جديد لترمي الصاروخ الثاني فوق كلية الهندسة المعمارية، بعدها شقت السحاب وغابت دون تفسير إلى هَوَلٍ ما حدث!

الجميع اختبئوا خلف دهاليز الدهول، فقد كان الجحيم يحوم حولنا ولم يكن هناك مفر للهروب!

اختفى السلام لوصف المصيبة، حتى الأحاسيس تجمدت وغاب الكلام عنها! المشاهد هجرها النسيان والأحلام ماتت دون أن تتحقق! كل شيء ذهب... لا فِصَّة ولا تنك!

كأنه زلزال عنيف ضرب الأرض، فتح معه أبواب السماء! أخذت
الجثث تتطاير في الأجواء بالعشرات، واللون الأحمر أزهر في كل
مكان، انتشت الريح برائحة الشهداء مسك و عَنبر، تعالت التكبيرات...
لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله، هالات الأبرياء نور ملأ الجفون دموع،
وزفير نارِ الغدر طال حُطام النفوس، فالخيانة أمر لا يمكن تقبله من أي
أحد مهما كان الابتلاء كبيراً! فكيف إن كان من شخص ذو ثقة؟!
حسبنا الله ونعم الوكيل في كل نفس باعت ضميرها بثمنٍ بخس،
وطوبى للتراب الذي شرب نخبَ الشهداء حتى ثمل، طوبى للسحاب
الذي راقص أرواحهم دون تعب.

انتظرنا قرابة النصف ساعة دون حراك أو القيام بأي ردة فعل، كنّا
نبحث عن صوت يشعُرنا بالأمان، صوت ندرك من جراء سماعه أن
الخطر قد انتهى، إلى أن سمعنا صافرات سيارات الإسعاف، فخرجنا
حينها من قوقعة الخوف كي نساعد فريق الدفاع المدني في إنقاذ من
صافحه الموت...

كان كل شخص يبحث عن صديقه، عن أخته أو عن ابنه، وهو يحاول
التعرّف عليه بين الوجوه المُضرجة بالدماء... الجميع كان يبكي،
والصراخ سدّ المسامع دون استثناء!

رأيت أم حسين عاملة الكافتيريا في مقصف الجامعة مرمية على الأرض بلا حراك، لقد كانت بجانب حائط الممر الموصل الى مكتب شؤون الطلاب، وبجانبها صينية كان عليها فنجان قهوة وكوب ماء امتزجا بدمائها الدافئة...

قمتُ بالإنحناء لأتفقد حالتها، مسكت كتفها وقمت على هزه بشدة ثم رحت أنادي عليها بصوت قوي قائلاً:

أم حسين..... أم حسين، هل أنت بخير؟

رائحة الهال أخبرتني أن تلك القهوة آخر ما قامت به أم حسين، بالرغم من مسؤوليات أولادها الخمسة، وطلبات زوجها العصبي التي كانت لا تنتهي، بالرغم من محبة جميع الموظفين لها والناس الذين يحيطون بها ماتت وحيدة.... وحيدة ماتت! بل ماتت برفقة فنجان قهوة وشربة ماء، ذاك اليوم لم ينتهي بعد... لقد كان هناك خبر سيء يخص زوج شقيقتي أيضاً، خبر مفجع طغى على كل ما مر بنا من مشاعر...

في الحرب يطعنك الموت ألف مرة قبل أن يُجهزَ عليك!

صوت ينادي باسمي:

شريف... شريف يا بني، ما بك؟

والدي واقف أمامي ينادي بصوت خافت، وأنا غارق في بحر ما مضى بنا من أيام عصيبة، حفرت الأمواج في ذاكرتنا أحداث حزينة تجعلنا

نعيشها في كل لحظة! صوت أبي أعاد بي إلى العزاء حيث الناس ما
تزال تتوافد إلى منزل أهلي للقيام بالواجب، وبكل هدوء أجبته قائلاً: نعم
أبي خير! هل هناك شيء؟

أخبرني أبي أن الماء شارفت على النفاذ، وعليّ أن أجري اتصالاً بأبو
العز صاحب صهريج الماء كي يأتي ويملئ خزان الدار.
يا إلهي، ماذا أقول؟

عندما يقع المرء تنهال عليه الضربات، وها أنا ذا... وقعت والضربات
تنهال عليّ من كل جهة! صهريج ماء الآن يعني المزيد من رمي المال،
المزيد من المصاريف، المزيد من القلق، المزيد من العمل والمزيد
المزيد من الجهد المقتول ونحن في نفس المكان لا نتقدم! بل بدأنا
بالتراجع إلى الخلف حقاً!

هناك أشياء كثيرة بإمكانها أن تكون قاتلة دون أن تزهد قطرة دماء،
أشياء تثقل الروح هموم وجراح من الصعب جداً شفاؤها مهما مر عليها
الزمن، بالمقابل هناك شيء مفقود يسرق السعادة من عرين اللحظات
التي نعيشها! لنضحك بعدها لأنفه الأسباب وإلى أسخف الدعابات!

كل شيء بمقابل

جروح الجسد تلتئم مع الزمن وجرح الروح يلازمه الألم،
أناقة الهدام رخيصة أما الأخلاق الفاضلة فهي باهظة لا تقدر بثمن.
لقد وصلنا في اللعبة إلى مرحلة العيش في الغابة، حيث لا قانون ولا
رقابة ولا حساب لأي شيء يُذكر! هنا أرض الوحوش البشرية والبقاء
للأقوى، فمن يستطيع البقاء يبقى، ومن يستطيع المغادرة فليغادر، ومن
يمت فليرحمه الله...

كان قد انتاب زوجتي بيسان حالة اكتئاب شديدة بعد حادثة الجامعة
المروعة فأصبحت تبكي لأبسط الأمور، حيث أخذ الذعر طريق إليها
والقلق بات في أي فكرة تمر على بالها، غياب الأمن والأمان خلق
اضطرابات شديدة جعلت العيش في هذه المدينة معاناة كبيرة، بالإضافة
إلى الصعوبة في تأمين الحاجات الضرورية هدمت القواعد الاجتماعية
والعلاقات السليمة بين الناس.

شيئاً فشيئاً تغيرت جميع المقاييس، وانعدمت المعايير الأخلاقية في التواصل! لم يعد احترام الكبير والعطف على الصغير موجود، والحق ذهب دون رجعة بينما الغدر أتى عاري بلا قناع، الصدق لا محل له حيث الكذب ملأ مكانه، حتى أنا تعلمت الكذب بل امتهنته حدّ الاحتراف، بتّ أكذب بسهولة دون أي عناء لدرجة أن وجدت الكذب لعبة ممتعة مع تلك الأجواء المملة.

الحياة في الأزمان خلطت ما بين الخير والشر، ما بين الجميل والقبيح إلى أن أمست فوضى فيها القوي يأكل الضعيف.

في إحدى الجلسات المسائية من ليالي الشتاء الباردة، بدأت بيسان حديثها بكل صراحة حيث أعربت عن ندمها وهي تبكي قائلة:

كان علينا أن نفكر في عملية الإجهاض يا شريف، الظروف حالياً غير مناسبة أبداً لقدم طفل رضيع! لا نعلم ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة فالوضع من سيئ إلى أسوأ....

تفاجأت حينها من طريقة تفكير زوجتي! وأخبرتها أن الأطفال هبة من عند الله تعالى، والإجهاض دون سبب هو حرام غير جائز في كل الديانات السماوية، وأن هناك عائلات تحلم بأن يرزقها الله طفل مهما كانت ظروفهم سيئة...

إلا أنني عذرتها على ما وصلت إليه من حزن وقلق، فقد أخبرتني أن الظروف التي تُحيط بنا أو بالأحرى التي نحن نعيش داخلها غير لائقة البتة بقدم مولودٍ جديد، فالرضيع بحاجة إلى حليب مجفف، وتعقيم زجاجات الرضاعة بغليها على النار بالإضافة إلى (حفاضات يومية) ومصاريف طبيب مختص وأدوية علاج إن أصابه مَرَضٌ ومصاريف مواصلات سيارة الأجرة من وإلى المدرسة التي تعمل بها لاختصار الوقت وسهولة الحركة...

قاطعتها حينها البنبت المدبّرة في رواق مسامعي أن جميع تلك القضايا لها حلول! قائلة لي بصوت قام على تغطية صوت بيسان: أولاً: على بيسان التقدّم إلى مديرية التربية بمنحها إجازة دون مرتب بعد انتهاء إجازة الأمومة.

ثانياً: تكثيف الدروس الخصوصية في المنزل لتعويض المرتب الموقوف حتى إشعاراً آخر.

ثالثاً: الاعتماد على الرضاعة الطبيعية بشكل كامل.

رابعاً: استخدام الأقمشة البيضاء الخام بديل عن (الحفاضات الجاهزة) كما كانت الأمهات سابقاً يستخدمنّ إياها قبل ذلك الاختراع المكلف.

خامساً: مازالت مستوصفات الدولة على قيد العمل في تأمين اللقاحات اللازمة وأطباء الأطفال متواجدة كذلك.

سادساً: تفاءلوا بالخير تجدوه ولا يمكن أن تقتلوا روحاً بتلك البساطة.
قهقهت البنت المتمردة بسخرية قائلة لها:

وهذا الذي نحن فيه! أليست الحرب تقتل أرواح لا ذنباً لها؟

تدخلت معها البنت المتشائمة بأسلوب ساخر وصوتٍ خافتٍ قائلة:

عن أي حفاضات تتحدث المدبرة؟ ألا تعلم أن تنظيفها يتطلب

الماء! لن أذكر الكهرباء حتى لا أنال المزيد من الشتائم...

صرخ عليهن صديقي عابد كعادته كي يحسم الجدل قائلاً:

كفاكّنّ ضجيج، إن الموضوع لا يحتمل أكثر مما هو عليه

دعوني أتولى الأمر وعلينّ المراقبة فقط.

اقتربتُ حينها من بيسان وأنا أمسح على رأسها، قائلاً:

دعك من كل هذه المخاوف عزيزتي واعتمدي على الله الواحد الاحد،

لا تفتشي في صندوق الذكريات الجميلة وتقارني بها مع الحاضر...

ولا تُجهدي تفكيرك في متاهة المستقبل التي لا يعلم حلّها سوى الله،

دعي القلق جانباً وامضي إلى الأمام... فطريق السعادة معبد بالتفاؤل

ومليء بشاخصات الأمل، لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة...

ما يزال لدينا منزل يأوينا وشموع تنير ليالينا، والأهم من ذلك كله زوج

يحبك بكل حالاتك ولا يرى في هذه الدنيا غيرك.

استطعت أن أفك عقدة ابتسامتها لتزين ثغرها اللوزي، قاضياً على
آلامها بالمداعبة فقط دون تجاوز، مع أنه كان اليوم خميس وسهرة
الخميس لها طقوس لا يعلمها سوى رجال حلب، لكنني نجحت بالصبر
إلى الغد! فقد كان الغد يوم الجمعة، ولا بدّ من الاغتسال في يوم
الجمعة، ومن اغتسل في يوم الجمعة غسل الله عنه البلاء ونحن فعلاً
شعب ابتلاه الله شرّ ابتلاء....

عادات كثيرة كنا نمارسها تغيرت مع تلك الظروف الصعبة، بل أن
معظمها حُذف من القاموس العائلي، ومنها عادة سهرة يوم الخميس التي
تقام كل ليلة جمعة إلى ساعات متأخرة، حيث يكون اليوم التالي عطلة
واستراحة من العمل ولا ضير إن سهرنا على مشاهدة فيلم برفقة عشاء
فاخر يليه نوع من الحلويات والفاكهة والمكسرات، لكن مع انقطاع
الماء المتواصل وغياب الكهرباء وارتفاع الأسعار لم يعد هناك ما
يسمى سهرة الخميس.

أما يوم الجمعة فأصبح له برنامج مخصص يجب القيام به وإلا كانت
كارثة، فقبل أن أفكر بالاغتسال والطهارة للذهاب إلى الصلاة، عليّ
تأمين المياه من بئر الجامع الذي يتصدر الحي وهو موثوق صحياً
بشهادة المستخدم، حيثما لا قدرة لي على شراء الماء من باعة
الصهاريج المتجولة، ومع ذلك لا نقوم باستخدامها في الشرب بل فقط

في الطبخ والغسيل، لكن لسوء الأحوال المادية كان بعض الناس يستخدمون مياه الآبار في الشرب بشكل مباشر دون تعقيم، مما أدى إلى انتشار حالات كثيرة من الإسهال وبعض حالات التهاب الكبد.

لقد أمسى العيش في المدينة معاناة حقيقية فبعدما كنا في حياة آمنة وبدأنا للتخطيط الى المستقبل، لقد توقفنا عن سُبُل التطور بل تراجعنا أشواط، ومما زاد الطين بلّة ظهور نفسيات متعفنة وعقليات لا يمكن التفاهم معها مهما حاول بعضنا البعض!

مع تفاقم الأزمة اشتدت المعاناة كثيرًا، لقد أصبح تجار الأزمات الأوفر حظًا في تلك المحنة والأكثر شهرة، أما نحن للأسف نزيد من الجشع بطلبنا المستمر للمواد كافة دون مقاطعة أي منها! فكان المطلوب أكثر من المعروف مما جعل تحديد قيمة المادة وسعرها مبني على رغبة التاجر وطمعه في جني المزيد من الأرباح.

والغريب أن نضع كل ذلك في خانة العادي! كل ما حولنا تغير من الألف الى الياء، معاني الحروف تشوهت مع الحرب، والناس لها مطلق الحرية في أن تحلل وتركب كيفما تشاء سواء فهمت أم لم تفهم! والنتيجة دائمًا هي كلمة عادي، عادي لكل ما يحصل ونحن لا نملك سوى الأمل الذي طال انتظاره، للأسف أصبحت الثروة التسلية الوحيدة لكل طبقات المجتمع.

بينما الواقع يقول بأن الحياة مليئة بالتناقضات والمفاجآت سواء الضارة منها أو السارة، ومليئة بالأحداث من الجيدة إلى السيئة، تنعكس علينا من خلال طريقة التفكير واتخاذ القرارات، وفي الحقيقة تعود النتائج إلينا بدروس وخبرات مدفوعة الثمن إما نفسيًا أو جسديًا أو ماديًا، فلا شيء يأتي بالمجان في هذا الزمن.

في إحدى أيام الجمعة أمسكتُ يد باب المنزل أصافحها تحية الصباح قبل ذهابي لأداء المهمة الأسبوعية، كنت أحمل بيدي الأخرى جالونات فارغة كي أملأها من ماء بئر الجامع، وإذ فجأة نزل من الأعلى صراخ جارتنا أم الجود، رافقه خبط أقدام كأنها دبكة شعبية، هزّ معه جدران المبنى القديم، ظننتُ للوهلة الأولى أنّ هدية صاروخية قادمة نحونا من جهة ما وراء الشمس!

لبضعة ثوان لم أكن أعرف ماذا أفعل! تجمدت في أرضي أنتظر ما الذي سيحصل بعد كل هذه الضوضاء، ثم أخذت أنطق الشهادتين بلسان متثاقل كي أستقبل الموت وأنا غير مستعد له!

مهما كانت الحياة صعبة نبقى خائفون من قدوم الموت، هكذا هي حقيقة الطبيعة البشرية، نظل متمسكين بالحياة إلى آخر رمق بالرغم من مرارة العيش التي نتذوق طعمها كل يوم!

لكن ما حصل حينها أن صراخ أم الجود لم ينقطع، وكأن القذيفة التي ستقتلنا بقيت معلقة إلى وقت آخر! رميت بالجالونات على الأرض ثم صعدت مسرعاً إلى بيتهم وأنا أصرخ: خير جارتنا! ماذا هناك؟ فتحت أم الجود الباب وهي تلهث وترتجف! وقفت كالتمثال للحظات لا أعرف ماذا حصل؟ أنتظر جواب لسؤالي... ثم أتى الرد بأن الماء والكهرباء جاءتا معاً!

قالت الخبر وهي لم تصدق ما قالت، ثم ركضت إلى المطبخ لتؤكد لي أن الذي قالته صحيح وليست مزحة، فأخذت تفتح وتغلق الصنبور عدة مرات، وتضغط على قابس الكهرباء لترى النور مضاء وهي تقول: رأيت؟ هذا حقيقي يا شريف الماء والكهرباء معاً.

ثم صاحبت النبأ بزغرودة حلبيه عميقة زلزلت المبنى بكامله معلنة عن خبر لا يضاهاى فرحته أي خبر آخر....

كان الخبر بالنسبة لي أمراً جلل لا يمكنه المرور بسهولة هكذا، فقد استغرق مدة دقيقة لينتقل عبر السيالة العصبية من حاسة السمع الى الإدراك كون الطريق كان غير سالك بسبب تراكم الخبيات، فأخر اجتماع للكهرباء والماء منذ أكثر من ثلاثة أشهر تقريباً، إنه العيد بأن يحضران معاً في زيارة واحدة حتى وأن كانت الزيارة لا تستغرق سوى ساعات معدودة.

أطلت عليّ البنت العاطفية بثوبٍ طويلٍ أبيضٍ من الساتان له فتحة تصل إلى الفخذ، أخذت تعزف على نبض قلبي معزوفة رومانسية وهي تُدندن قائلة:

شريف يا عزيزي العلاقة الحميمة لا تنساها، الوقت مناسب جداً فالماء الساخن متوفر دون عناء.

لم أعرها أي اهتمام حينها، فليس كل ما تقوله البنات صحيح- بنات أفكارى- غالباً ألجأ إلى عابد في عملية اتخاذ القرارات.

لقد غيرت الأزمة الكثير من طريقة التفكير التي كنت أتبعها من قبل، هناك أمور أصبحت في المقدمة، والتي كانت في المقدمة أمست من الكماليات لا ضرورة في إنجازها أو بالأحرى لم يعد هناك الوقت المناسب والذهن الصافي أو الشهية المفتوحة للقيام بها.

نزلت مسرعاً إلى المنزل كي أخبر بيسان الخبر السار فقد طرأ على برنامج يوم الجمعة تغيير ولا بد من انتهاز الفرصة للقيام في أعمال كانت مترامية، كانت بيسان قد بدأت العمل فمع صوت أم الجود الذي زلزل المكان عرفت أن هناك شيئاً خارق حصل!

لقد أتى النشاط دون بطاقة دعوى، كان حضوره موثقاً في كل زوايا المنزل من الغسالة الآلية إلى المكنسة الكهربائية... أما أنا فهرعت إلى ملئ القدور والقوارير والجالونات وأي شيء مقعر يمكنه احتضان

المياه بأمان، ثم صفتها بانتظام إلى أن يحين استعمالها بلا تذيير أو إسراف فلا أحد يعلم متى تأتي الماء في المرة القادمة!
ثم ساعدت بيسان في تنظيف المنزل وقمت بكوي الملابس المكدسة، وقامت هي في صنع قالب من الكعك كانت فرات قد طلبته منذ أيام بل منذ أسابيع، وقمنا بشحن الأجهزة الجواله على أكمل استيعاب بطاريته...

كنت في حالة من الدهشة لرؤية الماء تنزل من الصنبور بكل بساطة هكذا! ونور الكهرباء ساطع في كل مكان في المنزل، والفرن الكهربائي يشتغل والمكواة تعمل! وضجيج المكنسة يدوي بين الغرف وصوت الخلاط يملأ المطبخ! كل شيء كان مذهل! لقد اشتقنا إلى حقيقة وجود الأشياء لدينا وأنها ليست مجرد قطع للصدء أو الزينة.
لقد عرفت حينها أن القيمة الفعلية لأي شيء هي في استخدامه، فمثلاً ما قيمة مجفف شعر إن كنا لا نستخدمه في تجفيف الشعر؟ وما قيمة المكنسة الكهربائية إن كنا لا نستخدمها في التنظيف؟! أو ما قيمة الغسالة الآلية إن كنا نغسل بطريقة يدوية؟! وإلخ من الأشياء التي نملكها ولا نستخدمها!

تدخلت العاطفية كعادتها في الإلاح قائلة:

شريف ألم أخطر على بالك؟ ها قد انتهيت من كل الأعمال ولم
يبقَ أي منها بين يديك! ألم يحن الوقت؟ لقد قمت بتوفير الجهد
الذي كنت تبذله في تأمين المياه من الجامع، فما رأيك أن
تستخدمه في إيقاظ مشاعر نائمة في طيّات الحرمان؟!
قاطعها صديقي عابد واعظًا إياها قائلاً:

المسألة يا عزيزتي ليست بالوقت أو العمل أو كل ما ذكرته،
المسألة لا تعني شريف فقط! بل تعني زوجته أيضًا، فإن كانت
متعبة بعد كل هذا العمل عليه أن يقدر ذلك! أو غير مهياة نفسيًا
فيجب تقديم الرعاية والاهتمام من ناحيته، الأمر يحتاج رغبة
الاثنتين وليس واحد. في كل الأحوال ما حصل كان متوقع
حتمًا، فقد انقطعت الكهرباء مجددًا بعد ساعتين من قدومها
وذهب كل ما قيل أدراج الرياح.

وقبل حلول المساء كانت الماء مقطوعة أيضًا، كون عمل محطات تنقية
المياه وضخها إلى المدينة متعلق بوجود الكهرباء، وقدوم الكهرباء
متعلق بعمليات الإصلاح التي تتم على المنظومة الكهربائية المسؤولة
على تغذية المدينة، والمنظومة الكهربائية يتم استهدافها كل فترة بفدائف
من طرف الجهات المعارضة! حيث ما يلبث أن يتم إصلاحها حتى
تتعطل من جديد، بالإضافة إلى أن تلك المنطقة تعد من المناطق الخطرة

وتحت خط النار، واللجنة التي كانت تذهب إلى تلك المنطقة للقيام
بعمليات الإصلاح كأنها تذهب إلى الجحيم، أرواحهم بكفهم ولا يعلمون
إن كانوا سيعودون أم لا! ألا يستحقون منّا التحية والتقدير؟
هناك أيضاً مَنْ يتوجب أن نحبيه أعطر التحايا، أكملت عنّي البنت
الواقعية وهي تنشد أمام الأخريات قائلة:
ألف تحية وسلام للرجال الذين أصبحت متاجرهم الأرصفة
والنواصي...

تحية لكلّ شخص لرزقه ساعي وهو للخطر غير مبالي
تحية لكل صاحب دُكان لم يسمح للطمع والجشع أن يكون له موالى
تحية لكل من عرف التأقلم مع الأوضاع السيئة، ولم يعد ذو طباع
مزاجي...

تحية للنازحين الذين ودّعوا منازلهم والمباني
تحية لفريق المتطوعين ولجميع من يقوم بأعمال الخير وينادي
ألف تحية وسلام لكل من بقي في حلب صابراً صامداً يُعاني.
صفقة طلائعية لأحلى بنت من بنات أفكاري في هذا الظرف السيئ،
فهي دائماً تحاول أن تكون في أبهى طلّة رغم الشوائب التي لحقت
بمرايا الروح المشعورة.

بعدما فشلت محاولات الجهات المختصة في استرجاع الكهرباء الى مدينة حلب غرقت المدينة لعشرة أشهر في ظلام دامس، والمولدات الصغيرة التي تعمل على المحروقات الذهبية لم تعد تفي حاجة أصحاب المحلات كذلك المواطن الذي يملك مخزون احتياطي من العملة الصعبة بات يتطلب المزيد من الرفاهية، ولصعوبة تأمين مادة المازوت أو البنزين، ومن أجل الليالي التي قضاها أصحاب السيارات نائمين داخلها أمام محطات الوقود حتى يحين دورهم لملئ خزاناتها بالبنزين أو شرائه لتشغيل المولد الآلي المغذي للكهرباء... اقترحت لجنة مختصة حكومية مشكّلة في محافظة حلب بتشغيل مولدات الأمبير في المحافظة، والتي تقوم كل مولدة منها على تغذية عشرة منازل تقريباً، بحيث يتقاضى صاحب المولدة مبلغ عن كل واحد أمبير أسبوعياً على أن يحدد عمل المولدة لمدة اثنا عشرة ساعة يومياً، وتحدد كمية المازوت لكل مولدة بألف ليتر شهرياً...

وأوجبت اللجنة على أن تكون المولدة محققة لشروط السلامة البيئية، بمعنى ألا تصدر ضجيج أو دخان، اللجنة قلقة جداً على البيئة والجو المحيط بنا جزاهم الله كل خير، مع الجدير بالذكر أن كل واحد أمبير يقوم بتشغيل شاشة تلفاز قياس اثنان وثلاثين بوصة وإنارة ثلاثة مصابيح توفير طاقة بمقدار مئة شمعة فقط.

أدهش حقاً من المعلومات السابقة! فبالرغم من المآسي التي تُحيط بنا، ما زلنا مهتمين بأدق التفاصيل، أظنّ بل أنا على يقين أن هناك أمور علينا الاهتمام بها أكثر من أمبير وفولت وباقي الصحبة...!

على كل الأحوال عائلة الأمبير تلك لا تعنيني أبداً، فبعد دراستها من جميع الجهات استنتجت أنها لا تمدّ لي بأية قرابة، ولا رحم بيننا على الإطلاق لأقوم بوصله، فأنا كموظفٍ شريفٍ (لكلٍ امرئٍ من اسمه نصيب) أتقاضى راتب ثابت لا يستطيع تأمين الاشتراك الباهظ في تلك الرفاهية التي تتلعب نصف الراتب!

الحاجات اليومية العادية من طعام ومواصلات وشراء الماء من صهر يج خاص للأمر الطارئة... الخ، بالإضافة إلى دفع قيمة أجار المنزل التي تستقبل الراتب من أول الشهر بمراسيم تليق به، هي مسؤوليات ثقيلة أحملها على عاتق ظهري وحيداً بعدما تقدّمت بيسان إلى مديرية التربية بمنحها إجازة لسنة كاملة دون مرتب، عسى إلى وقتها تنتهي الحرب! في حين بقّت مستمرة بإعطاء الدروس الخصوصية في منزلنا -كما أشارت عليّ البنت المدبرة- لتأمين مصروفها الشخصي.

ومنه تمّ تكثيف استشعار حاسة اللمس إلى أعلى طاقتها بحيث جعلناها نافذةً تطلّ على ما نريد الحصول عليه من داخل أركان الخزائن

والرفوف، والقيام على الالتزام بالعادة الصحية القديمة وهي النوم باكراً
والصحو باكراً مع الضوء الطبيعي كما كانوا يعيشون الناس قبل
اختراع الكهرباء والمصابيح الضوئية.

هناك أشياء أكثر ضرورة من الأمبير وغيره، فما فائدة أن يكون
المصباح مضاء ونحن جياع! ما معنى أن تكون الثلاجة في حالة تشغيل
وهي فارغة! كيف استحم بماء ساخن ولا يوجد ماء متوفر للشرب أو
للطبخ! أسئلة لا أجوبة لها لأن السؤال هنا غير مناسب على أرض
الواقع.

الحمد لله يا رب على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى والتي للأسف لا تُقدّر
قيمتها إلا بعد غيابها، فالماء حياة في كل الفصول، وهو المصدر
الأساسي للعيش... والكهرباء نعمة نستطيع من خلال استخدامها
الحصول على الراحة والرفاهية في العيش.

تعالت الأصوات من حولي، ثم فقدت بعدها سلسلة الحمد بين أكوام
الضجيج الذي حدث فجأة! لقد دخل رجلان في مشادة كلامية رفعت
حدة الأجواء وسط المعزّين داخل منزل أهلي، أحدهما وقف غاضب
يقول بلهجة مناطق أهل الجزيرة، حتى أنني ظننت لو هلة أنه من أقرباء
بيسان، وأخذ يصرخ:

إلى متى؟ لم يعد العيش يُطاق في هذه المدينة، نحن أموات هنا
ولا أحد يشعر بنا! نحن أشباح، أشباح تمشي...
قاطعته الرجل الثاني بصوت أعلى وبلهجة حلبية ثقيلة، ظهر معها غريبًا
عن المنطقة قائلًا له:

إن لم يعجبك الوضع ارحل ودعنا نعيش بهدوء، الطريق ما
يزال مفتوح أمام الجميع ولا أحد يلزمك على البقاء!
أجابه الرجل الأول:

إلى أين أرحل يا رجل؟! كل خطوة لها ثمن.
قالها والدموع محبوسة وراء الأهداب ثم رحل من مجلس العزاء وكأن
شيئًا ما حدث! ثم تبعه الرجل الآخر بعد دقيقة دون أن يلقي علينا السلام
حتى!

لحظات من الفوضى أخذت الجميع في جولة نقاش حاد، بعضهم كان مع
الرجل الأول وبعضهم كان مع الرجل الثاني، ثم أفضت الجولة على
عبارة حسبنا الله ونعم الوكيل، لم يفوز أحد الطرفين بالمبارزة ولم يتفقا
على شيء، هكذا نحن دائمًا من الصعب جدًّا أن نتفق، بل اتفقنا على ألا
نتفق...
نتفق...

بينما أنا رحت أراقب بصمت كأني تمثال منصوب وحيدًا في العراء...
في الحقيقة:

أقسى الكلام أن تلوم نفسك وأصعب العتاب على كلمة خرجت ولم تعد.

رواية عاشت حلب

الموقف السادس

لا بد من التغيير

بعد انتشار طاعون غلاء الأسعار الذي تفشى على جميع المواد الغذائية أولاً، وثانياً على الأدوية ومتطلبات العلاج الضرورية، ومع الاستمرار في قطع الكهرباء والماء بشكل لا يُصدق! ناهيك عن صعوبة تأمين مادة الغاز والمازوت والتي باتت جلب تلك المواد يتطلب صفات المارد السحري... صار الوضع المعيشي في المدينة مزري للغاية.

الحياة في حلب أمست أشبه بسيناريو كتبه شخص ثمل في حالة اللاوعي مع الواقع، والجميع لا طريق أمامه سوى التأقلم على التنازلات والتعاش مع بورصة الفاعل والمفعول، كل ما تطلبه موجود بأسعار خرافية، وخاصة الخضروات والفواكه واللحوم، مما جعلنا نعتمد في تناول الطعام على البقوليات مثل البرغل، والنشويات كالأرز والمعكرونة.

لكن مهما اختصرنا يبقى الوارد لا يغطي الضروريات! لذلك كان علي التفكير لوحدى هذه المرة دون الرجوع إلى عصابة بنات أفكاري، في عملٍ أقوم به بعد دوام الجامعة، والحمد لله على رضاه كنت قد بدأت العمل محاسب في مقهى بالقرب من ساحة سعد الله الجابري، صاحبه والد إحدى الطلاب الذين أحاضر لهم، يبدأ الدوام من الساعة الرابعة في توقيت العصر حتى العاشرة ليلاً، وبذلك أصبحت مُلزم للخروج صباحاً من المنزل، ولا أعود إليه حتى انتهائي من العمل الإضافي أي عندما يكون الوقت متأخرًا في الليل....

لا بأس في ذلك، فمنزل أهلي قريب جداً من منزلنا وإن احتاجت بيسان شيء سيكون التواصل معهم سهل بتواجد جود المرسال السريع بينهما، فأحياناً تنقطع الاتصالات الأرضية فجأة وبلا سبب، كذلك الجوّال لم يعد في خانة الثقة كون أبراج تغذية الاتصالات الجوّالة تتعرض للدمار الواحدة تلو الأخرى، مما يجعل الاتصال صعب في بعض المناطق ومنطقتنا من تلك المناطق، بالإضافة إلى أن الأنترنت مقطوع كذلك من خمسة أشهر تقريباً أو أكثر، في الحقيقة لم أعد أذكر المدة بالتحديد. كل أولئك استطعنا أن نتأقلم على غيابهم ونعيش دون استخدام أدوات التواصل الحديثة بحيث عرفنا كيف أن نصنع البدائل عنها، لكن الذي يشغل تفكيري بشكل دائم هو تأمين ما يتطلبه كل يوم من خبز...

نعم خبز.....

الخبز مادة غذائية يومية يأكلها الفقير قبل الغني و عليه الحضور على جميع الموائد، فبالرغم من ارتفاع سعر الربطة أحياناً الى مئة ضعفها، لا يزال الخبز يتصدر قائمة الطعام، حتى وإن أنت ألف نسخة من الملكة ماري انطوانيت وقالت مقولتها الشهيرة أثناء الثورة الفرنسية آنذاك (ليتناول الشعب الكعك بدلاً من الخبز) لن يُغير من شهية المواطن الحلبي للخبز نصف درجة مقابل أطنان من الكعك...
الشعب الحلبي معروف بكمية استهلاكه للخبز دونه عن غير شعوب باقي المحافظات السورية، فإلى جانب كل صنف طعام لا بد أن يكون الخبز متواجد على المائدة دون أي نقاش أو جدال.
والوقوف داخل طابور الانتظار أمام الفرن من أجل الحصول على ربطة خبز لا يتجاوز فيها العشرة أرغفة أصبح معاناة يومية تأخذ من الوقت ساعتين أو أكثر قبل الذهاب إلى العمل، وأحياناً كانت بيسان تنزل تقف في طابور النساء كونه أقل عدد من طابور الرجال كي يأتي دورها بشكل أسرع وننتهي من تلك المشكلة اليومية، ولكن لم يعلم أحد كيف كنت أشعر حينها مع تلك الوقفة، ازدحام وفوضى، ونظرات ثاقبة نحوها كانت تقتحم كياني الممزق المهترئ، مع كل ربطة خبز تجلبها بيسان هناك غصة تطعن روحي وتقتل المبادئ التي تربيت عليها.

ثمة أمور تحدث في المدينة كقيلة بأن تسرق مني شيئاً لا يمكن الإفصاح عنه، أمور قتلت داخلي أفكار لتتولد مقابلها أفكار أخرى لا علاقة لي بها! إلى أن غيرتني رويداً رويداً دون أن أدرك ذلك، ثم وجدت نفسي أنني تغيرت! أنا لست أنا، أنا شريف ولست بشريف.

أشكر أمي التي أنقذتني من مشكلة تأمين الخبز، فقد قررت ذات صباح تحضيره في المنزل، مثلها مثل الكثير من سيدات حلب اللواتي اتجهنَّ إلى تحضير الخبز وخبزه في المنازل كي يتغلبنَّ على تلك الأزمة، فإذا توفر الدقيق والغاز يتمكن تأمين الخبز بما تيسر من مجهود...

يعتبر الذهاب إلى بيت أهلي وإحضار بضعة أرغفة من الخبز المنزلي أسهل بكثير من إحضاره من الفرن، حتى وإن كان تأمين أنبوبة الغاز فيها مشقة وقصة مختلفة عن تأمين الخبز من الفرن، ما يزال الحل الأنسب هو الخبز المنزلي...

لا بأس إن اختصرنا بعض الوقت والمجهود في الحصول على الأساسيات مقابل أشياء لا تُذكر!

كم كان جميل التخلص من ذاك الشعور القاتل عندما أخبرتني أمي أنها أرادت خبز الخبز في المنزل، لقد طرت من السعادة عندما أكلت الخبز من صنع يديها، فأنا لم أكن أجراً أبداً على تناول لقمة واحدة بهناء من

الخبز الذي كانت تحضره بيسان من الفرن، فقد كان مليء بالهوان الذي يخفني مع كل مضغة منه.

غصة وراء غصة تجعلك تنفر من الأشياء التي تحبها مهما تكن عزيزة عليك.

وبين كل ما حدث لاحظت على نفسي ظهور هواية أهرب بها من بنات أفكاري، اكتشفتها بعد عبوري عدة حواجز ونيلي عليها أوسمة فخرية... ألا وهي التأمل، نعم للتأمل مفعول سحري يفك شيفرة أصعب النفسيات، وأنا في إحدى تأملاتي تجاوزت الخط الأحمر، ورحت أنع حالنا على ما نحن نعيشه! وأقارن بين الماضي والحاضر أما المستقبل فلا مكان له هنا.

صراخ ليس بغريب كان يحاول ردعي عما أنا فيه، قائلاً:

قف عندك يا شريف، هذه الهواية التي اكتشفتها بعيداً عنا لم ولن تنال سرورنا أبداً، عد إلينا ودعك من تلك الهلوسات.

إنهنّ البنات كالعادة، لكن هذه المرّة خائفات عليّ من ثورة نفسي عليهن وعلى صديقي عابد، طلبت منهن حينها أن يتركوني وشأني، لم أعد قادر على المزيد من تقبل الأفكار والتفكير بها.

أفكاري تضرب برأسي دائماً وأنا ما عدت أحتمل شغب بناتهنّ المتواصل، وصديقي عابد في إجازة مفتوحة.

إلا أن زوجتي بيسان أرادت أن تحل بعض الأمور المعقدة فأتت باقتراح كان لا بد من طرحه، قائلة لي بأن ابنتنا فرات من الأفضل لها ألا تذهب إلى المدرسة في الفصل الثاني، عليها أن تبقى في المنزل... هنا أسلم. لم أجيئها بأي حرف ولم أسأل حينها كيف ستتابع الدروس، ولم هذه الفكرة مرت على أبواب القرار في تلك المرحلة! فقد كنت أعرف الإجابة ولست بصدد إلقاء الكلمات في وقت كان الفعل أقوى. ومع ذلك تركت بيسان تلقي ما عندها متابعة بقولها:

بعد أصداء القصص التي نسمعها كل يوم عن عمليات خطف الأطفال وتجارة الأعضاء البشرية وحوادث الاغتصاب المتكررة لم يعد الشارع آمن لها، فرات في الصف الثاني الابتدائي، وأنا أستطيع متابعة المنهاج الدراسي الكامل معها كونه ما يزال بسيط... هكذا أفضل.

النازحون من مناطق حلب القديمة يقيمون في بعض المدارس الحكومية، ومدرسة فرات كانت من المدارس التي لجأ إليها النازحون من المناطق المنكوبة، فامتألت الصفوف بهم، وتحولت المدرسة إلى سكن مؤقت يؤمن لهم المأوى، لذلك تساهلت مديرية التربية مع الطلاب من ناحية الدوام المدرسي، على أن يحضر الطالب في موعد الامتحانات الفصلية المقررة لأداء الامتحان كما يجب.

مع قدوم الفوضى إلى أحياء المدينة رحل الأمان، انتشرت حوادث السرقة والخطف والاعتصاب كما قالت بيسان، لكن الذي لم تقوله إنها كانت مقيدة ضد مجهول!

هنا عليك أن تكون حارس شخصي قوي لنفسك ولعائلتك، لا أحد مسؤول عن غياب الآخر ومشاكله، فربما يقوم النهار على ابتلاعك كما الليل، أو تستيقظ مرمي على أحد النواصي مسلوب لإحدى أعضائك الجسدية أو أي شيء آخر تتوقعه أو لا تتوقعه.

بيسان وفرات في المنزل فلا داعي للخروج منه إلا للضرورة القصوى، لقد حاولنا قدر الإمكان أن نُبعد طفلتنا عن الأجواء المأساوية التي تحيط بها في المدرسة من فقد أصدقائها واحداً تلو الآخر!

مرّات عديدة أتتتنا تتنهد خائفة تروي لنا قصص مرعبة لا تناسب سنّها، واحدة على زميل لها في الصّف اختفى فجأة! وإذ هو تعرّض لعملية اختطاف وأهله لا يعلمون عنه شيئاً، وأخرى على صديقته التي ماتت مع والدتها عندما كانتا تعبران الشارع قرب منطقة أمنية تصادف فيها إطلاق الرصاص مع جماعات مسلحة، أما آنسة جوري الصف الخامس فقد داهمها لصّ أثناء عودتها إلى المنزل و قام على سرقة المحفظة بعد أن هاجمها وكسر ساعدها الأيسر، ومثلها الكثير من الأحداث المؤلمة التي تسمعها فرات كل يوم...

فرات طفلة حساسة جداً، أصبحت في حالة حزن دائمة، والدموع تحرق وجهها الصغير، تبكي بألم وهي تسأل والدتها قائلة:

لماذا لم نعد نذهب إلى الحديقة؟! لماذا الناس هنا لم تعد تحب بعضها؟ أمي، هل أتى الأشرار إلى المدينة؟

أسئلة كثيرة غامضة بل ألغاز صعبة الحل بالنسبة الى طفلة ولنا أيضاً، البعض منها كنّا نحلّها بأسلوب المراوغة، أما الباقي كنا نقوم بتعليقه على مشجب التجاهل حتى بات مكّس بالخيبات.

لقد أصيبت فرات بحالة نفسية سيئة تصيب الأطفال في حالة الخوف والفرع، لا عجب فنحن الكبار أمست حالتنا النفسية سيئة جراء الخوف المستمر طوال اليوم، فما بال الأطفال من ذلك؟!

ذاك الخوف الذي ينهش قوانا دون أن ندرك ما يفعل بنا، الخوف حوّلنا إلى كائن ضعيف لا حول له ولا قوة في أي موقف نتعرض له!

نحن نعيش مع الخوف بشكل لا يصدق! ننام مع الخوف ونأكل مع الخوف، في بيوتنا نخاف وكذلك في الشارع! نصمت لأننا نخاف وقد نكذب لأننا نخاف أيضاً، نحلم بخوف ونفكر بخوف، نخاف من الفقر ونخاف من المرض والألم، حتى الموت نخاف منه بالرغم من أنه الخلاص الوحيد لما نحن نعيشه في المدينة...

بارعون في الخوف وملحقاته فنحن لا نعرف سواه.

بيسان كانت خائفة أيضاً على أهلها، فمنذ فترة طويلة انقطعت الاتصالات بينهما، ولم تسمع عنهما شيئاً سوى الأخبار التي تتحدث عن اقتراب داعش من مدينة القامشلي، مما جعلها في حالة هلع وتوتر دائم عليهما ومن أن يصيبهما أي مكروه وهي بعيدة عنهما، لكن قلقها لم يستمر طويلاً إذ استطاعا الهروب والنجاة بأرواحهم في آخر لحظة. أذكر تلك الليلة الشتوية التي وصلا بها إلى حلب حيث رأيتهما للمرة الأولى، كنت عائدًا بها إلى المنزل بعد قضاء يوم شاق في العمل والركض وراء تأمين ما عليّ تأمينه من لحظة فرح لابنتي فرات مقابل لقمة اشتتها أو لعبة طلبتها مني بحياء...

كان الجو شاحب منقط بحبات المطر الخفيفة، والشوارع يكسوها الظلام من كل جانب إلا الطريق الذي أسلكه في كل مرة، فقد حفظت أين يكون المنعطف ومتى ينتهي الرصيف، واعتدت مكان كل حجر وموقع كل مطب لدرجة أنني أستطيع المشي وأنا معصوب العينين، وهذه الاحترافية لا يقدر لها أي شخص، وخاصة إذا كان غريب عن المنطقة. صرت قريباً إلى حاجز عسكري منصوب على مدخل إحدى الطرقات، بل كنت أسير أمامه إلى أن استوقفني شاب يرتدي بذلة عسكرية، وعلى كتفه بندقية قائلاً بصوت يدل على حداثة عمره:

مهلاً، قف...! قل لي من أين جئت وإلى أين تذهب؟

وبنظرة واحدة عرفت على الفور أنه عنصر جديد قادم إلى ذلك الحاجز، فهذه المرة الأولى التي رأيتَه على نقطة التفطيش تلك، فأجبتَه بكل هدوء وثقة أخبره فيها عن إحدائيات خطواتي الماضية والقادمة، لكنه أراد المزيد وطلب مني رؤية البطاقة الشخصية.

بطاقتي الشخصية لها حكاية غير كل حكايات البطاقات الأخرى، فقد خاضت معارك مع مختلف أنواع المنظفات، القوية منها ذو الرائحة العطرة ومع مختلف مساحيق الغسيل وكل ما وقع عليه يدي حينها، كونها وقعت في مكان وجب التنظيف المطلق والتعقيم، مما جعلها ضعيفة لا تحتمل أي قوى خارجية قد تمارس عليها، وأنا أعرف ذلك تمامًا...

كنت أحاول المحافظة عليها وعدم خضوعها لأي طارئ يستنزف المزيد من صلاحية البقاء، حيث لم يكن لدي الوقت للذهاب إلى الجهات المختصة لتقديم طلب على تغييرها واستبدالها بأخرى جديدة! لذلك مكانها دائمًا في جيب سترتي من الداخل طرف الصدر، لتكون قريبة إلى نبضات القلب الغير منتظمة بسبب الحالات الفجائية والصدمات، فتعمل هي على تنظيمها بأكبر قدر ممكن من الوطنية. مددت يدي كي أخرج البطاقة، ظنّ العسكري أنني سأخرج شيئاً آخر، صرخ في وجهي بعد أن قام بتوجيه بندقيته نحوي قائلاً:

قف عندك ولا تتحرك.

قلت له حينها لا تقلق، فأنا لا أحمل سوى البطاقة! أما عن حملي
المسؤولية والهَمّ والخوف والحزن وغيرها من الأحمال لا تعتبر شيء
مقابل ما أحمله من جذور وطنية.

أخرجتها بحذر من المكان المصون ثم قدمتها للعنصر بكل لطف قائلاً
له: تفضل... هذه هي البطاقة الشخصية التي طلبت!

أخذها من يدي ومعالم السوء بدت على تقاطيع وجهه الأسمر الصغير،
ثم قام بتسليط الضوء عليها بواسطة مصباح يدوي، فبدت كما هي دون
مبالغة في الزيادة أو النقصان، بطاقة مهترئة أكل عليها الدهر وشبع!
مما جعلني في موقف لا يحسد عليه، وما توقعته حصل وفوقها حبة
مسك! رماها في يدي قائلاً ونيران الغضب تشتعل في عينيه قائلاً:

ما بك يا رجل؟! أهذه بطاقة تحملها؟! كم حرب خاضت هذه

البطاقة؟ وكم من لعنة وقعت عليها؟ لماذا هي هكذا مثل وجهك

الذي لا يحمل أي تفصيل!

أحسست حينها أن طعنة خبيثة خرقت شرف تاريخي العظيم، مما
أوصل الدم لدرجة الغليان في جميع أوصالي، فما كان إلا من إحدى
بنات أفكارني أن تقوم في زجي داخل موقف ما كنت أحبذ دخوله يوماً
ما! حيث أجبته بكل قوة تنم على جهل كلمة الصمت بكل معانيها قائلاً

له: لن أسمح لك أن تتكلم معي هكذا، وتلك البطاقة تعني لي أشياء ثمينة
قد لا تعرف أنت معناها.

كان رده غير متوقع أبداً، ابتسم وقال بلهجة تحمل من السخرية الخفية
ما يكفي لفهم ما يريد الحصول عليه في تلك الليلة، قائلاً:
كفاك فلسفة... فالجميع هنا أصبح فيلسوف عصره، سمعتك بما
يكفي! والآن أعطني ثمن علبتين سجائر مع عشاء محترم يليق
مقامك والإلا....

قاطعته بصوت تخطى حاجز الحماس بخطوات قبل أن يكمل جملته
التي حملت صيغة التهديد الواضح، قائلاً له:

وإلا ماذا؟! قل ماذا ستفعل؟

كنت أفق وحيداً، فبنات أفكارى هربت مني وصديقي عابد متواري عن
الأنظار! بينما تابع المجدد سخريته قائلاً:

ما هي قصتك هذه الليلة يا أستاذ شريف؟ ومن أنت حتى تتجرأ
وتكلمني هكذا؟ ربما على رأسك ريشة ولم أراها يا ذكر البط أم

أنك تود زيارة بيت خالتك؟

كلمة مني وكلمة منه اشتدت أنفاس الغضب بيننا، وإذ فاجئني بعدها
بصفعة قوية على خدي صاحبها خُدر طعن الوطنية في الصميم، ثم

أحقها بلكمة على معدتي عن طريق أخصم البارودة، جعلتني ألتوي
منها وأتقيأ ما تبقى من شموخ كنت قد احتفظتُ به الى يوم تحية العلم.
خرج الضابط المسؤول من غرفته المسبقة الصنع المنصوبة وراء
الحاجز، كي يتحرى سبب الضوضاء التي شقت سكون الليل، قائلاً:
ماذا يحصل عندك؟ لم كل هذه الأصوات؟!
انقلب العنصر فجأة إلى وضعية القط البريء بعدما خلع رداء الذئب
الذي رماه تحت سابع أرض، ثم أجاب سيده قائلاً:
سيدي، زاوية بطاقته الشخصية مكسورة والصورة غير
واضحة كذلك الاسم أيضاً، بالإضافة على هذا كله واقف يلقي
المحاضرات يا سيدي الضابط!
اقترب الضابط بضع خطوات فتعرّف على شخصي المحترم دون
الحاجة للنظر إلى البطاقة الشخصية، ثم وجه كلامه إلى العنصر قائلاً
له: هذا شريف أعرفه، دعه يمر على كفالتني.
وقبل أن أهم بالرحيل، دنا الضابط من أذني هامساً بأن عليّ أن أخرج
بطاقة جديدة، فقد أصبح لا بد من التغيير، وإلا ستسبب لي تلك البطاقة
الكثير من المشاكل لاحقاً.
هناك بعض الأعمال لا تحتمل التأجيل، الأفضل أن تنتهي منها على
وجه السرعة، وإلا لن تنال الوقت لفعالها فيما بعد.

لا أدري ماذا حصل لي حينها! لم أخبره ما فعله بي ذلك العنصر وماذا طلب مني أن أعطيه، خفت أن ينكر كل ما حصل بيننا إن أنا قمت على شكايته، نعم كنت خائف! خائف من شيء ما، بل من عدة أشياء!
ولا وقت للشجاعة هنا، كنت فقط أريد الوصول إلى منزلي بسلام.
فأجبت الضابط بالموافقة على ما قاله، وأني سأقوم على نزع الفرصة السانحة من أحشاء الأيام القادمة كي تتم عملية التغيير بنجاح مطلق،
مثلما قمت بتغيير الكثير من الأمور، لن أماطل أكثر بما أملكه من وقت فقد انتهت مدة الصلاحية...

ابتعدت عن الحاجز مسافة كافية بحيث جعلت من عابد يظهر قائلاً لي:
الصفعة التي لا توقظك، تستحق منها المزيد.

أين كنت يا صديقي حين عندما كنت بحاجة لك! جعلتني ليلتها أبلع مرارة الموقف على أنه نصيب بعد أن قررت ألا أبوح به لأحد، فأن تقوم بتأدية دور السعيد أسهل بكثير من إفشاء الحزن والألم.
هناك أحداث الأفضل لها أن تبقى مدفونة، لا يمكن الحديث عنها حتى إلى أقرب الناس، لذلك قمت ليلتها على حفر حفرة بأسرع طاقة خبيثي ولممت ما تبقى من كبريائي ورميته فيها ثم وأيت ظهري لصوت الاستغاثة الخافت وأنا أبتعد عنها برباطة جأش ما عهدتها من قبل!

كنت أرتعش تلك الليلة بشكل مبالغ فيه، أو همت نفسي أني أرتعش من البرد لكن الأمر غير ذلك أبداً، من الصعب أحياناً قبول ما مرّ على أنه واقع لا بد منه...

بعض الأكاذيب بمثابة حبل نجاة لا يمكن إفلاته كي لا نسقط ونصطدم بالحقيقة.

ليلتها تأخرت عن موعد عودتي إلى المنزل قرابة الساعة، وما إن اقتربت من كنيسة الحي حتى رأيتُ طيف شخصين، أحدهما رجل يرتدي ثوب طويل ويضع على رأسه شماخ باللونين الأبيض والأسود يغطي فيها الذقن والفم، أما الطيف الآخر فكان لسيدة ملتحفة بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها، لم يكن يظهر سوى عينيها وقسماً من وجهها، كانت علائم التيه مرسومة عليهما بوضوح... يلتقآن في مكان ثابت مثل الرادار الذي يدور حول نفسه، يُحاولان التعرف على أية إشارة تظهر داخل مدارهما، معهما حقيبة سفر صغيرة مُغطاة بالوحل دلت عليهما في تلك الساعة المتأخرة على أنهما غريبين ليسا من المنطقة، بل ليسا من المدينة كلها.

اقتربت منهما بحذر كي أسمع حسيس لهجتهما، لم تكن اللهجة الحلبية الثقيلة! هذا يعني أنهما ليسا من منطقة حلب القديمة، المرأة كانت تبدو ضائعة تحاول أن تستدل على مكان ما في الظلام، بينما الرجل كان

يحمل الجوال وهو يعبث بيده على أزراره، علّه يستجيب للجهة المتصلة ويأبى النداء... لكن عبث! فالخطوط مزاجها تلك الليلة لم يكن داخل التغطية المنشودة فهي غير مستعدة لتلبية الدعوة مع ذاك الطقس الرديء.

أنا بطبعي فضولي مهما حلّ بيّ من صدمات، وكما يقول المثل (يالي بغير عادته بتقل سعادته) أردت أن أستطلع الأمر، فاقتربت منهما إلى أن ظهرت على شاشة بحثهما وسرعان ما سألت الرجل قائلاً له:
هل تبحثان عن أحد أيها الحاج؟!

أجابني الرجل بلهجة غريبة عن لهجة أهل حلب بأنه يبحث عن منطقة اسمها العزيزية شارع الجلاء الواقع قرب منعطف النهر، ولقد كان مندهش من كون المدينة بهذه الحال الحزينة!

ما كان بي إلا وأن أبلغته بعض الكلمات بلا أية تفكير أو إدراك:

نعم... هنا حلب ولمّ العجب؟

حلب تُرحب بكم، أنت لست ضائع

الموت يقص الطرقات والشوارع

والبيوت ورق مقوى...

هنا بقايا مدينة تأن بصمتٍ وتتلوى

هنا الشعب صامد على الكروب والأهوال صابر

قلبه مليء من الإيمان، العزيمة قوية والجباه عالية

نعم حلب ستبقى قوية بأهلها...

هم نبضُ شريانها الأوحدهم عزها، مجدها وأصالتها...

أهلاً وسهلاً بكم.

اقتربت مني السيدة كي تتأكد من ملامح وجهي المخبأة وراء عتمة الليل، وهي تسأل قائلة:

شريف!! ألسنت شريف زوج بيسان!؟

انتقلت الدهشة إلى طرفي بعدما كانت تسكن أطلالهم بداية اللقاء،

نظرت إلى السيدة بصمت بينما عيناها كانت تريد أن ترى وجهها

الكامل عسى أن أستطيع معرفة المرأة التي عرفتنني!

شعرت هي أنني أطلب كشف وجهها كي أعرف عليها، فسارعت إلى

نزع الخمار ثم وقفت أمامي منتظرة أن أحذر من هي! أما الرجل لم

يصبر أكثر من ذلك وقطع علينا حل اللغز بابتسامة عذبة لن أنساها،

قائلاً لي: بني، نحن أهل بيسان ألم تعرفنا بعد؟

كانت دهشتي كبيرة على وصولهم إلى المدينة بسلام، لكن مقدار

السعادة التي غمرتني آنذاك كانت أوسع لتغطي الدهشة بكل سهولة،

كانت الفرحة واسعة لدرجة أنها استطاعت أيضاً تغطية مرارة الموقف

المؤلم الذي مررت به قبل رؤيتهم!

الشعور بالفرح يعمل كالسحر في صيانة الحالة النفسية السيئة، إنه يجعلك تأخذ فرصة للتنفس لكي تحاول أن تبدأ من جديد.

إنها المرة الأولى التي ألتقي بأهل بيسان وجهاً لوجه، طبعاً ما عدا السكايب والفايبر أيام العز التي كنا نتصل فيها معهم كي نتحدث ونطمئن على بعضنا البعض...

حضانتي بشدة وشاركت الدموع العناق، كانا كالغريق الذي تعلق بقشة وتلك القشة كانت مدينة حلب، مكان إقامة ابنتهم الوحيدة التي لم يجدا سواها كي يلجؤوا لها، فقد هربوا بأعجوبة من بطش داعش الذي وصل مدينتهم، تركا كل شيء خلفهم لينجوا بأرواحهم ويصلان إلى شاطئ الأمان بالرغم من سوء المعيشة هنا! لكنها ليست بمستوى السوء هناك، يقول المثل: (مين جابك على المر، الأمر منه).

سبحان الله! لم تأتيني الفرصة لزيارتهم في القامشلي فقد كانت طائفها رافضة تماماً مشروع الزواج بيننا لاختلاف الأديان وما لحقها من عادات وتقاليد، لكن إلحاح بيسان حينها جعل من والديها يوافقان على الزواج، محذريها من غضب ذويها، لذلك لم نفكر يوماً بزيارة المدينة لتأتي تلك الحرب وتجمعنا مع بعض دون موعدٍ مسبق.

رواية عاشت حلب

الموقف السابع

المرايا الصافية لا تكذب

أرى نفسي مثل أي جبلٍ متجمد، تتقاذف نحوه الحمم البركانية، وهي تحاول إذابة الحالة التي أعيشها بكل ما لديها من قوة، لكن الجليد يقف دائماً أمامها بالمرصاد، إذ يقوم على إطفاء الاشتعال بكل ما بداخله من برود، ولا يكتفي بذلك! بل ويقوم على تغطية مكان الحروق بطريقة سحرية وكأن شيئاً لم يكن!

أشعر أنني ذاك هو الجبل المتجمد! وأن الجليد لن يذوب إلا إذا انفجر من تلقاء ذاته في سيل من المشاعر المكدسة، لأغوص بها مع نفسي حدّ الموت، علّه يجرف معه ما بقي مني ليصنع بها جبل جليد جديد في بلد بعيد لا جذور له هناك ولا حبيب...!

صوت بكائي أصبح مسموعاً في جلسة العزاء، لم أعد قادراً على حبس أهاتي، فالألم وجد طريق الدموع ليخرج على العلن، عابد وحده يعلم لما كنت أبكي، بينما الجميع ظنّ أنني بكيت على فراق عمي يونس، لا...

أنا رجل مؤمن وأعرف أنه لا بد من الموت، لكن متى؟ وأين وكيف؟ لا أحد يعلم سوى الله تعالى.

الذي يموت يلقي الراحة، بينما العذاب من نصيب الذين ما يزالون يحاربون الموت من أجل العيش.

قرأت مرة للإمام الغزالي:

"هذا الزمان كفيل بتغيير أي قلب مهما كان ثبات صاحبه."

ونحن في هذا الزمن كان الله في عوننا، نخوض كل يوم المعارك في سبيل المحافظة على المبادئ التي باتت تتلاشى يوماً بعد يوم، إنه الجهاد بعينه أن تجاهد بنفسك على نفسك للحصول على الغنيمة من البقية الباقية، والتي تكون بمثابة جرعة من الأمل كي تستطيع الاستمرار في محاربة ما تحارب من أجله!

استطاعت بيسان أن تحصل على بعض تلك الغنيمة عندما أنتت الحرب بأهلها إلى المدينة، لقد باتت منفرجة الأسارير بعد قدومهم بخير وسلام، وبدت ضحكتها كأنها عقد من الياسمين موصول بين أذنيها! فهي كانت حزينة جداً عليهما ومشتاقة لهما أيضاً، حيث أنها لم تراهما قرابة العشرة سنوات منذ زواجنا آنذاك.

عمي يونس والد بيسان ووالدتها تيريزا كانا قد ارتاحا عندنا وبدأت عافية جسدهما تعود، عائلة بيسان صغيرة فهي لديها أخ واحد يكبرها

بثلاثة سنوات يعيش في إيطاليا، كان هنا في حلب من خمسة عشرة عام
في بعثة للتنقيب عن الآثار في قلعة حلب، حيثما تواجد أيضاً حينها
فريق من المنقبين يحمل الجنسية الإيطالية باتفاقٍ مع الدولتين، ولقد كان
الفريق يضم نخبة علماء الآثار وبينهم عالمة أكبر منه بثمانية سنوات،
سرى بينهما تيار العشق، حولهما الى عصفوري الحب... فما إن انتهت
البعثة الإيطالية من عملها حتى عادا معاً الى إيطاليا بعدما تزوجا هنا.
منذ بداية الأحداث في سورية طلب شقيق بيسان من والديه أن يأتيا الى
إيطاليا ليعيشا معه، لكن يبدو أن أمي تيريزا لم تحبذ الفكرة، فهي منذ
وصول ذبذبات التجاذب بين ابنها والإيطالية كانت معارضة بزواجه
أجنبية من باب العادات والتقاليد (غير معروف أصلها من فصلها
والعذرية غير مهمة في مجتمعهم) كما بررت حينها...
ما عدا ذلك إنّ قرار الاستمرار أو البقاء يعد من القرارات المهمة
والقوية، فمهما قست الظروف على ذاك الوطن يبقى المواطن الحلقة
الأضعف، لكن السؤال الذي يطرح نفسه! إلى متى؟
بعد فترة وجيزة من نزوح أبي يونس وأمي تيريزا الى مدينة حلب
والمكوث عندنا أصبحنا متاً وفينا، كنا نأكل من المعاناة معاً وننقسم
الصبر معاً... كنا نضحك معاً ونحزن معاً، ونسهر على ضوء الشموع

معًا، كنا نتسامر عن الماضي الجميل ونقارن به الحاضر، أما المستقبل فلم نكن نملك الجرأة على فتح أوراقه...

كانا يذهبان إلى الكنيسة التي بجوار منزلنا، ثم يعرجان إلى بيت أهلي لزيارتها، لقد أصبحنا أصدقاء رائعين... كان عمي يونس يلعب نرد الطاولة مع أبي بمهارة، إذ كان نادرًا ما يخسر الجولة بينما أبي كان يتقبل الخسارة بضحكة نابغة من قلبه نضحك عليها جميعنا، وبعد انتهاء المباراة بينهما، كنا نتابع السهرة بتحضير عشاء خفيف نتناوله سوية، بينما كانت والدتي وأمي تيريزا في حوار لا ينقطع عن الحياة والعادات والتقاليد والمقارنة حولهم بين مدينة حلب والقامشلي...

امتزجت العائلتين إلى درجة كنا نبذو فيها عائلة واحدة، لقد أمسينا في الحيّ مثال للتعايش مع بعضنا البعض، ونحن نتبادل المحبة والود والاحترام.

صديقي عابد نصحني حينها على القيام بزيارة عاجلة إلى الجهة الأمنية كي يكونوا على إطلاع بهذا الأمر، فألجأت المختصة ترغيب بأن تكون على علم في كل الأحداث التي تجري مع المواطن، أين ذهب؟ مع من؟ وإلى أين؟ أين يعيش؟ ومع من؟ وماذا يأكل؟ وكيف؟ إلى آخره من الأخبار التي تحب الأم أن تعرفها على أولادها كي تطمئن عليهم...

وأنا أحببت بدوري أن أكون الولد البار، وأسبق الجهات المختصة في تلك المهمة لأخبرهم بما يقلقون عليه، وأقوم بزيارتهم من تلقاء وطنيتي دون تكبدهم عناء الدعوة.

اخترت يوم السبت من العطلة الأسبوعية للأهرامات الحكومية كما أسميها -ليست دوائر كما يدعون- لأن يوم الجمعة مخصص لتأمين المياه والاختزال ثم الذهاب الى صلاة الجمعة، وبعدها قضاء باقي اليوم مع والدي والاطمنان عليهما، أما باقي الأيام لا سيطرة لي عليها لارتباطي في دوامي الجامعي الصباحي، أما عملي في المقهى فقد استولى على مساء كل أيام الأسبوع.

وصلت المبنى الأمني مضطرباً من بعض الخوف المعتاد، ثم دخلت الطابق الأرضي بهدوءٍ مطبق الفكين، أحمل بيدي بطاقتي الجديدة أتفاخر بها... تلك التعريفية الشخصية التي حصلت عليها بعد أن رُفرت روعي حولي في عدّة معاملات رسمية، فأن تُخرج بطاقة شخصية جديدة في هذه المدينة، أصعب من استخراج مستحاثة من بطن حوت وهو مههد بالانقراض.

المهم... كان كلّ ما عليّ قوله كلمتين والسلام، إلا أن المهمة التي ذهبت إليها لم تكن كما ظننت، فقد أخذت مني الزيارة اليوم بكامله! خرجت وقتها قريب الزوال على ما أذكر... دون وجهة أتجه إليها، ثم

قادني شرودي في طريق رمادي الى متجر الأحلام الوهمية، وقفت حينها أمام المتجر كي أقرأ اللوحة المزركشة المعلقة فوق المدخل، كان مكتوب عليها عبارة (متجر الأحلام السحرية)، لاحظ صاحب المتجر التردد الذي ظهر عليّ، فخرج إلى الباب مع عبارات الترحيب قائلاً:
تفضل لا تتردد، أهلاً وسهلاً بك... هنا ستلقى طلبك من أي حلم ترغبه، ولك حرية الاختيار فيما تراه مناسب لك، لكن اعلم جيداً أن الحلم الذي ستختاره غير قابل للتبديل بعدها أو الإعادة، لذلك اختر حلمك على تروي فهذا الوقت للأحلام...
أول ما خطر في بالي حينها حلم الأمن والأمان، فبحثت عنه بلهفة واضحة، كما الغريق عندما يبحث عن طوق نجاة في عرض البحر.
رد عليّ صاحب المتجر مؤكداً لي قائلاً:
لا تبحث يا بنيّ، إنه مفقود هذه الأيام.
سألته عن حلم عكس ما أبحث عنه، كنت أريد أن ألهو مع البائع قليلاً، فقلت له: وهذا الذي يسمونه حلم الإثارة كالأفلام، أأجده عندك يا عم؟
أجابني وكأنه قد عرف ما جال في خاطري قائلاً:
لا تقلق يأتيك بالمجان.
ثم تابعت معه: ألدريك حلم النسيان...؟
أجابني: لن يتحقق يا عزيزي، يبقى سراب وزوبعة دخان.

عدت وسألته: أهناك حلم عن بلدي والسلام...؟

كانت إجابته بكل حزن: لقد صادروه من زمان.

ثم عرض عليّ حلمًا قائلًا لي:

سأعطيك حلم دافئ لا قسوة فيه ولا آلام...

أجبت: أخاف من ألا أصحو منه، فقد نال مني الحرمان!

ثم سألته قائلًا: حسناً... ما وضع حلمي أن أعيش كإنسان...؟

قال لي بأنه أغلى حلم بعاه إلى الآن.

فقلت له: إذن.... أعطني أي حلم كان.

فأجابني مع ابتسامة قائلًا:

هاكّ واحد قديم حين كان العرب أخوة وخلّان.

أخذت حلمي على مضض لأنني كنت أعلم أنه لن يتحقق مهما اشتدت

علينا الكروب والمؤامرات، ثمّ ابتعدت عن الدكان...

وإذ بصوتٍ قوي دوى قريب المكان، لقد اغتالوا بائع الأحلام بسيارة

ملغومة، كان قد ركنها أحد الطرفان!

يا إلهي! من حينها لا أعرف كيف أغفو وأنام...

ركب على موجة تردادتي تصفيق حار آتي من جهة البنت المتمردة مع

هتاف عالي يقول:

واحد اثنين ثلاثة... شريف يا حياتي

قاطعتها سريعاً قائلاً لها:

أخفض صوتك فالوقت غير مناسب البتة لمثل تلك الهتافات! نحن في

عزاء، ثم أنّ إجازتي منكّن لم تنتهي! لم آتيت؟ وأين البقية؟

ما إن ذكرتهنّ حتى وثبّن أمامي دفعة واحدة في هذا الجو المشحون

بالصمت والحزن والألم ... فقلت لهن:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لم استيقظنّ الآن؟ فما يزال الجميع

نيام! نَمَنَّ أنتنّ أيضاً، ودعوني مع تخاريفي بسلام.

قفزت إحداهن بثقة تامّة ما عهدتها تصدر منها يوماً! قائلة:

كفالك دلعاً... من تظن نفسك حتى تطول اجازتك كل تلك المدة،

لست وزير أو رئيس حكومة لتتعم في إجازة متى يحلو لك!

قد تفاجئك ردود الأفعال أكثر من الفعل ذاته.

وما إن هبط المساء حتى انفض مجلس العزاء، الشموع لم تعد تكفي

لإضاءة الغرف، وبتنا لا نستطيع تمييز ملامح الوجوه المتواجدة،

فأخذت الأصوات الحيز الأكبر في الوجود، مما جعل المتابعة في

الجلوس من الأمور الصعبة.

ها قد ذهب كل الضيوف بعد الانتهاء من تقديم واجب العزاء، بارك الله

في جهودهم سواء كان صديق أو قريب أو من سكان الحي، الجميع لم

يبطئ في ذلك وأنا بدوري اغتنمت الفرصة أثناء توديعهم وشكرهم

للهرب من بنات أفكاري لآخذ قسطاً من الراحة، ثم انسحبت بمهارتي المعتادة متوجّهاً نحو مسجد التوحيد لإقامة صلاة العشاء.

دخلت الجامع مع صديقي عابد لا شيء يفسد ما أتينا لأجله، قمت على أداء صلاة الفرض جماعة، ثم بدأت بقراءة ما تيسر لي من القرآن الكريم والدعاء للفرج وفك الضيق عن المدينة وأهلها....

عاد بي الزمان بضعة شهور إلى الورا لكني بقيت في ذات المكان، عندما دخلت بيسان شهرها الثامن من الحمل على خير، كنت ماراً بجانب جامع التوحيد فدلقت إلى داخله لأداء ركعتي شكر، حمدت الله حمداً كثيراً على قضاء شهرها السابع بسلام، كنت خائف من ولادتها باكراً، حيث لا قدرة لي على تكاليف وضع الرضيع في حاضنة المشفى، بما أنها أصبحت تماشي تسعيرة فندق خمسة نجوم، بالإضافة إلى رحيل البرد وحلول الجو الدفيء حينها، فقد جعلني أتخلص من قلق كيفية التدفئة ومعاناة الغسيل بمياه باردة، نعم! فأحياناً كانت مهمة غسيل الملابس تصب على عاتقي، والله المستعان.

كان وضع البلد ما يزال كما هو، بل بدأ يزداد سوء من جميع الجهات، موشحات الرصاص المتواصل والقذائف العشوائية حطمت الرقم القياسي الذي سجّله المطرب القدير صباح فخري في مجموعة غينيس للأرقام القياسية بغنائه أطول فترة زمنية دون انقطاع، أما الكهرباء فقد

أخذت عن جدارة وضع سيء للغاية صفة لها، كونها تأتي بالصدفة دون موعد مسبق وبفترات قليلة لا تُذكر، بينما الماء لم تختلف كثيراً عن حال زملائها، بل يمكنك القول إن طريقها للوصول إلى المدينة بات أبعد، لأنها آتية من القمر على حسب قول بعض المحللين المختصين.. كذلك الأنترنت (واي فاي) لا يمكنك التحدث بالموضوع نهائياً، فهو في خانة الهجران الى أجل غير مسمى، مما جعلنا نضطر إلى استعمال بطاقة 3G للضرورات القصوى.

من كثرة ما مر على رأسي من مطبات، بدأت خارطة وجهي تتغير مع الإرهاق والتعب، أخذت تخط إحداثيات جديدة، بداية من الجبهة مروراً بالعينين إلى الفم ثم الذقن، لقد بدأ العمر يزحف على ملامحي الطفولية، لقد كبرت في فترة وجيزة عشرات سنوات.

زوجتي بيسان قالتها لي ذات يوم مخملي بكل بساطة! وكأنها لا تعرف أن الحالة النفسية غير مشجعة البتة على الاهتمام بالمظهر الخارجي! وأن السعي وراء لقمة كريمة شريفة غير سهل أبداً، وأن هذا العمل الشاق يشعر الشخص بأنه آلة صدئة تعمل على وتيرة تأمين الكرامة الوهمية!

بتّ أخشى أن يتحول قلبي إلى حجر فيكبس بعدها على أنفاسي ثم يحبسها وراء قضبان القفص الصدري! ويأتي عقلي بكل جرأة وشجاعة

يخبرني عكس ذلك! وأنا لست بأنا! أتحرك دون إرادة وأفعل عكس ما أقول، وأدور على ذات المنوال بلا توقف.

لقد استطاعت الحرب أن تغير من طباعي ومن مشاعري، أنا الذي كنت كتلة نشاط تعج بالحيوية والفكاهة، أضحك لأبسط الأمور وأبكي لأي مشهد مؤثر، أنا الذي كنت أهتم لأدق التفاصيل وأصغر المواقف التي أصادفها في طريقي، أما الآن للأسف ما عدت مهتم! جليد...

لم يعد أي شيء يثير انتباهي

لا صخب البلد من ثورات أو مؤامرات ومؤتمرات

ولا ردود الأفعال أو الإهمال

لم يعد أي شيء يثير انتباهي

لا ضوضاء المدينة من شموع أو دموع

ولا سكون المعابر وازدحام المقابر

لا شيء يثير انتباهي!

ولا حتى ثرثرة النسوة في حديث خاص

ولا تبرج المراهقات الصغيرات وضحكاتهن

ومعاكسات الغرباء لهنّ، لا شيء!

ولا حتى الطفولة التي أراها في الشوارع بين الأزقة

معلقة على النواصي تتبع السجائر

لم يعد أي شيء يثير انتباهي...

ولا أنا في المرأة.

في عمق ذلك الشعور السلبي نظرت إلى مآذن جامع التوحيد الأربعة،
والتي تأخذ كل واحدة منها زاوية من مبنى الجامع، كان لا بد من أن
يطوف على ذاكرتي حادثة هدد مئذنة جامع الأموي الكبير على بُكرة
أبيها بقذيفة عشوائية، تلك المئذنة الشقيقة الموجودة داخل المسجد
الأقصى في فلسطين المحتلة.

ومع هول الحدث الذي صار إلا أنه كالعادة تبادل الطرفان فيها

الاتهامات على هدمها، ومن ثم هداوا!

يُعد الجامع الأموي الكبير تحفة فنية رائعة تتوسط مدينة حلب القديمة،
حيث يعود تاريخه إلى زمن خلافة بني أمية، في داخله مقام النبي زكريا
عليه السلام، ولقد أدرج على قائمة التراث العالمي، وكان من أهم
الأماكن السياحية والدينية في المدينة، إذ يزوره القاصدون من كل أنحاء
العالم، إنه لأمر مؤلم أن يصبح مهجور وحجارته متناثرة في أرجاء
ساحة الجامع، لم أكن لأصدق كيف يمكن أن يتحول كل شيء إلى
نقيضه!

علمتني الحرب أشياء كثيرة ما كنت عرفتها لو عشت ألف عام!

ذاك اليوم المليء بالمشاعر المتضاربة لن أنساه، فقد جعلني أعيش
الحزن والألم مع الفرحة والبهجة في ساعة واحدة، فبالرغم من الثقل
الذي كنت أشعر به جراء الكرب من تلقي خبر خراب المؤذنة طُرْتُ
من الفرح! نعم، لقد طرت من الفرح يا صديقي عابد عندما أعلنت
بيسان إسلامها في اجتماع عائلي، لقد نجحت في إيصال بما كانت تودّ
أن تبثه لي عبر تلك البشرى، فهي أرادت أن تطفئ النار المتأججة في
صدري لتتعش روعي بعدها كما ينتعش النبات بقطرات الندى.

لم أتفاجأ حينها من قرار زوجتي بيسان، فقد كانت تصرفاتها توحى لي
وللآخرين أنها على مشارف الإسلام، لكنها اختارت الوقت العصيب
لترسم شمس مشرقة على صفحات الحياة في يومٍ غاب عنه النور.

وأنا خلال فترة زواجنا لم أكن دكتاتوري قط، تركت الأمر يسير كما
تسير الغيوم في السماء إلى أن تمطر غيث إيما تحط...

كذلك كنت مع بيسان فهي حرة في عقيدتها وإيمانها طالما تقوم على
الاتفاق الذي ربطته معها قبل الزواج، أنه في حال رزقنا الله تعالى
أولاد ستحاول أن لا يتأثروا بطقوس دينها حتى لا يقعوا في التشويش
العقائدي، هي تعرف أن الأولاد سيكونون على عقيدة أبيهم ودينه فلا
حاجة للمشاكل في هذا الموضوع.

إلا أن بعض الأفكار السيئة التي كانت تنتابني أحياناً، والتي زادت في
الفترة الأخيرة بعدما نزحوا أهل بيسان إلى عندنا، جعلتني أقلق نوعاً ما
حيال ذاك الأمر، لكن استطعت أن أمارس خاصية القمع على تلك
الهواجس بشكل قاسي فما تركتها تنمو وتكبر قيد شعرة!
لن تصدق يا عابد ماذا أهدت السيدة ليليان زوجتي بتلك المناسبة
السعيدة، فقد دعت بيسان مع أهلها في الأسبوع التالي على الغذاء
احتفالاً بإسلامها، وقامت على إهدائها في تلك المناسبة سجادة صلاة
لونها أزرق فاتح مطرزة بنقوش بيضاء ذات الطراز الإسلامي، مع
طقم صلاة أبيض مزين بشريط من الساتان السماوي، كانت قد قامت
على صنعهم بنفسها!
أما أنا فأردت حينها أن أهديها الأمان الذي تحلم به كل ليلة، لكن ما
باليد حيلة سوى زرع شتلات الصبر في حقول الروح، وسقيها بالإيمان
علّها تزهر سلام يوماً ما.

لكل موقف نقطة توقف

من أين نأتي بالصبر؟!!

وحدها العبادة بمقدورها أن تيبث الصبر في النفوس، والتي تعد العلاج الوحيد لآلامنا المسرطنة في خلايا الأمل، ومن روعة الحياة أن تأتي لحظات سكيئة بمقدورها مسح ما أفسدته الأحزان في يومنا، وهذه اللحظات لا تأتي إلا من التواصل مع الله تعالى.

بقيت في ساحة مسجد التوحيد أقوم على شحن روعي بالراحة النفسية والطمأنينة، فقد مر اليوم ثقيلاً على كاهلي ولم يعد لي قوة على حمل المزيد من المفاجآت...

كانت الساحة فارغة من الناس بالرغم من أنها تشع نوراً وضياء، للأسف لقد بدأ اليأس يزحف إلى أهالي المدينة بعدما عشنا شهر رمضان المبارك و عيد الفطر بقسوة وذنك لم نعيشه من قبل.

عندما وصل شهر الصيام كانت حلب غارقة في ظلمات الحصار
وغلاء الأسعار، موائد الإفطار التي كنا نعدّها سابقاً بما لاذّ وطاب من
محاشي وكعب، ومن مقبلات متنوعة مثل المحمرة والسمبوسك لم تكن
هذه السنة ضمن قائمة المأكولات الحلبية لهذا الشهر الفضيل، كذلك
الحلويات الرمضانية المشهورة في مدينة حلب والمخصصة لهذا الشهر
مثل غزل البنات المحشوة بالقشطة البلدي والفتق الحلي باتت في
الأحلام فقط، مثلها مثل القطايف والكنافة والبقلاوة...

صنف واحد كان حاضر على مائدة الإفطار لا أكثر، مع كأس من الماء
ونادراً ما يكون بجانبها كأس من عرق السوس، أما باقي المشروبات
مثل تمر هندي وقمر الدين فقد رحلت دون وداع! لكن لن أنسى الأطباق
الطائرة التي كانت تنتقل بيننا وبين عائلة أبو الجود، فقد بقيت طيلة
الشهر الفضيل محافظة على وتيرتها بين الطابقيين مهما كان المحتوى
الذي تحمله.

لقد مرّ علينا الشهر المبارك ونحن نعيش في حالة لا يحسد عليها، كل
شيء مفقود وإن وجد كان أشبه بمعجزة، كانت وقتها أصابع الحصار
متشابكة جداً حول المدينة بحيث النملة لا تستطيع النفاذ خلالها، وما
حاجتنا لنملة؟! بالرغم من أن تواجد النمل في المنزل دليل الى رزقٍ
قادم هكذا يُقال... ولكن كيف سيأتي النمل! وعلى ماذا يأتي؟

لم يعد يوجد في المنزل أي صنف يؤكل يستدعي وجود النمل! فالمؤمن من أرز، عدس وبرغل انتهت... لقد أصبحنا نبتاع مستلزمات الطبخ كل يوم بيومه من أجل إعداد وجبة طعام، ونأكل وفق المواد والمعدات الموجودة عند محلات البقالة، لا مجال هنا للخيارات!
فإن وجد أرز أو برغل مع العدس كان الطعام مجردة، أما وإن وجد البرغل لوحده كانت وجبة الإفطار برغل فرنجي لكن دون بندورة (طماطم)، وإن لم يتوفر شيء تكون المعكرونة الوجبة الراححة في تلك الجولة.

حتى طريقة شربنا الشاي تغيرت، لقد بتنا نشربه بلا تحلية حفاظاً على نسبة السكر في الدم وعلى الصحة العامة! في البداية شربناه بامتعاض دون التمتع بمذاقه، لكن مرة بعد مرة اعتدنا على ذلك، بل اكتشفنا أن مذاق الشاي أكثر لذة دون إضافات، لقد ظهرت نكهته الحقيقية التي كانت ضائعة مع ذرات السكر...

ولم السكر أصلاً! لماذا لا يضاف على الشاي قرفة أو كمون أو أي نوع من البهارات، لم هذا العنصر بالتحديد؟!
هناك عادات يعمل بها المرء دون أدنى تفكير! يمارسها باستمرار حتى تتحول إلى جزء من حياته اليومية... وعندما يتركها يكتشف الحياة كما لم تكن من قبل.

خلال المحنة التي نمر بها تمكنا من تغيير بعض تلك العادات بل أعظمها لم يعد ضمن ما نفعله، إذ تم الاستغناء عنها بسهولة كما تم الاستغناء عن أشياء كثيرة لم تعد ضرورية في هذا الوقت، هي كانت تتحكم بنا مثل صورة مقيدة بإطار محبوسة داخله، وهذا الإطار يغطي جزء كبير من الصورة!

القوة هي إمكانية العيش في ظروف استثنائية، والتأقلم بشكل سليم على أي وضع جديد، سواء كان هذا التغيير نحو الأفضل أو الأسوأ لا فرق. أن تستطيع العيش بما تملك من إمكانيات وقدرات خير لك، من أن تموت وأنت حي!

في تأملاتي الغير مسبوقه استنتجت أن الحرب للفقراء فقط، فهم وحدهم يقاتلون من أجل الحصول على لقمة العيش، هم وحدهم الذين يناضلون بكل ما يملكون من صبر كي يستطيعوا الاستمرار في خوض المعارك التي لا تنتهي، الفقراء يدفعون بأحلامهم إلى أرض المعركة فإما تموت فيها أو تخرج منها مبتورة...

بينما الغني يجلس في حصنه الحصين بألف خير طالما يملك المال لشراء ما يريد، يكتفي بمراقبة ما يحصل في الساحة دون الحاجة للنزول إليها، أو بمقدوره بكل بساطة أن يخرج من الحرب رافع الراية

البيضاء ليتابع حياته في مكان آخر، وعلى أرض بعيدة لا معارك فيها ولا قتال.

إلا في حالات نادرة لا يمكن نكرانها كما حصل في شهر رمضان الفائت، حيث أن الحرب استطاعت أن تجعل جميع الطبقات متقاربة من بعضها، الجميع كان يبدأ يومه وهو جائع، الجميع احتار ماذا يقتات على الإفطار، فلا قيمة للنقود هنا إن لم يتوفر ما تريد! الجميع صبر إلى حد الملل من الصبر، الجميع حاول الصمود أمام الجوع والحرمان من المأكولات الرمضانية، الجميع لديه حكايات تحمل ذات القصة لكن بأسماء مختلفة...

وأينما كنا، شئنا أم أبينا كانت الحال واحدة والمصير واحد، شاركنا آلام المخاض لولادة تلو الولادة وجميعها لم يكن إلا حالات حمل كاذب.... وماذا نملك؟! الواقع لا نملك سوى مواساة بعضنا البعض في لحظات الحزن والخذلان، وتلك المواساة كانت كفيلة أن تضرب آمالنا بكل المقاييس عرض الحائط.

ما هذا الهراء أيتها البنت المتمردة؟

عودي من حيث أتيت، فلا رغبة لي في الجدل...

لقد بات كل شيء من حولنا يضيق ويضيق، حتى المشاعر لم تعد
مشاعر! السطحية سدّت الفراغات ولم يبقى للأخذ والرد معنى، هنا
الزمن متوقف في هذه المحطة ينتظر قدوم معجزة ربانية.
حزنت ببيسان لأنها لم تستطع الصيام كل أيام شهر رمضان الفائت لعدم
قدرتها على ذلك، فقد اقترب موعد ولادتها وبان عليها الوهن والتعب،
هذا أول رمضان لها وهي مسلمة بالرغم أنها كانت تصوم في السابق
معنا... لا بأس بهذا، لقد بدأت بالفعل في صيام الأيام التي أفطرتها بعد
أن استعادت صحتها، مترتباً عليها دفع كفارة نقدية بقيمة إفطار مسكين
عن كل يوم أفطرت فيه أو إطعامه وجبة مشبعة... لذلك كنت قد
أخبرتُ عمي أبو عزّو -مشوه حرب حلب- بائع عرق السوس الذي
يقف على ناصية شارعنا أن إفطاره علينا طيلة شهر رمضان المبارك،
فكنتُ أعرج إليه يومياً قبيل المغرب أقدم له وجبة الإفطار من التي كنا
نقوم على تناولها....

أبي يونس وأمي تيريزا صامتا أيضاً معنا بعد إلحاح شديد منهما فهما
أرادا أن يتضامنا معنا في الظروف الصعبة التي شهدتها أهل حلب في
ذاك الشهر الفضيل وأنا تركتهما على راحتهما، ففي الصوم صحة
جسدية ونفسية لهما أيضاً... إلا أنني لاحظتُ عدة مرات مظاهر
الإفطار على أمي تيريزا من خلال نشاطها في الحديث عن أي خبر أو

نبأ، فهي عندما تصوم عن الطعام تصوم عن الكلام أيضاً لكني كنت أفتعل عدم الانتباه ولم أعلق على الأمر...

مع ذلك احترمتُ بادرتهما جداً وشيّدتُ بحسن أخلاقهما وطيبة قلوبهما أمام أصدقائي وزملائي بالتدريس في الجامعة، فالديانات السماوية جميعها تدعو الى المحبة والسلام، وما نحن عليه ليس إلا جماعات مرتزقة مختبئة وراء ستار الدين.

أما الأيام العشرة الأواخر من شهر رمضان الفائت فكانت لها روحانية خاصة، ظهرت في اعتكاف الكثير من الناس في المساجد كي يلتمسون ليلة القدر، تلك الليلة إن صحّت فيها الصلة وصحّ فيها الإقبال والدعاء خير من أن تعبد الله ثمانين عام عبادة جوفاء، ليلة القدر خير من ألف شهر، والحقيقة أنا كنت واحد من الذين آثروا الاعتكاف ولم يفعلوا. هنيئاً لمن يتبع النية الحسنة بالفعل، فغالباً تأتي النوايا لتظل نوايا أما الأفعال فنادرًا ما نقوم بها!

بالنسبة إلى عيد الفطر فقد مر بنا دون أي سابق تحضيرات، لم يكن مثل ما مضى من أعياد سابقة، بل كان مختلف كلياً عما كنا نعيشه من طقوس الاحتفالات وغيرها...

فيما سبق تقوم النسوة قبيل قدوم العيد بحملة تنظيف شاملة للمنزل كي نستقبله على نظافة وترتيب، تتضمن مسح الجدران وغسيل الستائر

وترتيب الخزن بعد جرد المحتويات الموجودة، ثم تعملن على تجهيز معدات الضيافة حيث يهر عن إلى شراء الأطقم الزجاجية الناقصة من أطباق وكاسات وفناجين قهوة... كل شيء نظيف، مرتب وجديد.

أما هذا العيد لم يحصل أي من هذه الحملات لأن إحساسنا بأننا ضيوف غلب على أننا أصحاب المنزل، وهذا جعل أيدينا مقيدة لا نقوى سوى على الانتظار، لقد بتنا مستعدون لترك كل شيء من أجل النجاة بأرواحنا، فالمنزل لم يعد يملك الأمان الكافي لنشعر بالراحة والاستقرار داخله، لربما في أي لحظة يُهدّ فوق رؤوسنا.

ثمة أشياء تصبح ذات قيمة أكبر عندما نكون بحاجة لها.

كذلك الحال مع حلويات العيد التي كنا نحضرها في المنزل فيما مضى لم نستطيع تحضيرها هذا العيد، نظرًا لعدم توفر المواد اللازمة لتحضيرها من سمن وسميد وسكر، بالإضافة إلى الانقطاع المتواصل للكهرباء جعل مهمة الطهي بواسطة الفرن الكهربائي مستحيلة! مما حول الفرن إلى قطعة ديكور في المطبخ لا أكثر...

كانت رائحة الكعك في الأعوام السابقة تعج في الشوارع معلنه عن اقتراب قدوم العيد، بينما في هذا العيد غابت عن الحضور، حتى الأفران الموزعة في المنطقة لم تصنع كعك العيد لهذا العام، الكعك أصبح من الكماليات فهناك مواد غذائية أهم بكثير من الكعك وأولها

الخبز! فأى شخص موجود في المدينة لو خيروه بين الكعك والخبز
سيختار الخبز بالتأكيد...

أما عن ضيافة العيد فقد اقتصرنا على تقديم القهوة فقط، قطعة
الشوكولا إن وجدت تُعتبر مصيدةً للشبهات، والحلويات الشرقية التي
يَشتهر بها العيد كالكرابيج والمعمول والميرومة بالفتق الحلبي وسوار
الست وغيرها ... أصبحت في الولايات، لا جدال عليهم أنهم أضغاث
أحلام وليسوا إلا أسطورة نحكي تفاصيلها ضمن حديث العيد!
ناهيك عن الفاكهة التي أوشكت على الانقراض، حيث في بعض
الأحيان الكيلو غرام لبعض الأنواع نافس سعر غرام الذهب! الفاكهة في
العيد الماضي كانت كنز من كنوز علي بابا، ومجرد وجودها على مائدة
الضيافة قد تثير التساؤل: من أين لك هذا؟!
لا مجال للمناقشة أو للمنافسة عندما يكون المطلوب مفقود.

لم نقم بتحضير أي نوع من حلويات العيد ولم نشترى الراحة بالفتق
وقطع الشوكولا، حتى الأولاد لم ينالوا فرحة الحصول على لباس جديد
أو لعبة كانت على قائمة الانتظار، لم يكن هناك أي زينة أو أضواء تنير
الشوارع، القلوب محروقة بكل ما فيها من أهات، لم نجد أي بهجة لقدم
العيد فالناس انشغلوا بأشياء أهم، نعم هذه هي الحقيقة...

إن لم تستطيع التحكم بالأمر لا تدعها تتحكم بك، عندما تصل إلى تلك النقطة فاعلم أنك بطل من أبطال المواجهة.

كل ما هنالك حاولنا أن نملاً الوقت بعمل أشياء تساعدنا على قطعه قبل أن يقطعنا بالقهر والوجع، ببسان وأمها قامتا بتجهيز لوازم الولادة كون زوجتي كانت قد أنهت شهرها التاسع ولم يكن باقي سوى أيام لقدم المولود، بينما أبي يونس قام بخياطة ثياب ملونة من بقايا الأقمشة لعرائس فرات الصغيرة، واحدة منهنّ كانت كبيرة جداً بطول المتر تقريباً...

لقد كان لدى العم يونس ورشة خياطة في القامشلي لا بأس بها تعمل فيها ثمانية سيدات، ولكن بعد نزوحه إلى هنا وجد عمل متواضع في إحدى الورشات الصغيرة القريبة من المنزل والمختصة بخياطة أطقم الشراشف واللحف وأغطية الطاولات، كم احترمت هذا الرجل لقد استطاع أن يتحوّل بكل فساحة صدر دون أي تدمر واستياء من صاحب ورشة إلى مجرد أجير لا يملك سوى خبرته.

الحياة مدينة ملاهي كبيرة ولحظة الولادة هي تذكرة الدخول، وشئت أم أبيت عليك الخوض في جميع الألعاب مهما كانت! فطالما أنت تتنفس إما تلعب أو تموت.

لم يمر على المدينة عيد كهذا الذي مر عليها! أتى العيد وذهب دون أي هدنة لتوقف القذائف كما سمعنا من أخبار، ولا أي حَسَم لإنهاء الحرب كما حلمنا... كان حزين ومؤلم وخاصة بالنسبة إلى الأطفال الذين فقدوا بهجة العيد وفرحته مع فقدان ما يتمنون، حاولنا قدر المستطاع أن نزرع البسمة على وجوه بعضنا البعض عسى أن تثمر رضى إلى العيد القادم.

كنت أنتظر قدوم أي جديد بفارغ الصبر كون الحدث بحد ذاته يحمل للأمل معنى التجديد في كل مرة يشيخ فيها، ليثبت بأن الحياة ستبقى مستمرة حتى في أخطر مدينة في العالم، لكنّ يبدو أن كمية التفاؤل الكبيرة التي أحلم بها دائماً مبالغ فيها! فما يلبث وأن يتلاشى كل شيء مع أدراج الرياح.

كان الوقت بعد منتصف الليل بساعتين أو أكثر حين شعرت ببسان بألم الولادة آنذاك، فقد لازمها مغص المَخاض في آخر أيام العيد حيث رأت علامات الولادة وعرفت أنها ستلد بعد ساعات، لقد أصرتُ يومها أن تضع المولود في المنزل بمساعدة القابلة أم جورج التي تقطن في المبنى المقابل إلينا...

قرارها هذا لم يأتي من عبث، فالمشافي الخاصة يلزمها فانوس علاء الدين السحري أما المشافي العامة تفتقر إلى الاهتمام والنظافة.

لم تعد غريبة حالات الولادة في المنزل ونحن في القرن الواحد والعشرين، حيثما عدنا إلى ممارسة كل الأعمال المنزلية على الطريقة القديمة ورتبنا كل الأشغال على أساس عدم وجود الكهرباء، بداية من غسل الملابس اليدوي وتسخين المياه من أجل الاستحمام، بالإضافة إلى الطبخ على الحطب أو على الفحم بحسب ما يكون متوفر... والأهم من هذا كله بتنا نعدّ مراحل تحضير الخبز من عجن وخبز في المنزل أسوءَ بأمهاتنا وجدّاتنا وبنسوة عصر ما قبل الحركة التصحيحية! فوجدنا أنه ليس غريب أبداً أن تضع سيدة مولودها في المنزل كما كان الأمر من قبل طالما حالة الولادة لا تستدعي أي تدخل طبي.

كل شيء مرتّب نظيف، المياه الساخنة جاهزة والشراشف البيضاء معقمة وأهمها الجو العائلي الفريد من نوعه، فوالدتي وأمي تيريزا كانتا بجانبها يخفان عنها ألم المخاض بعبارات التشجيع وتقومان بتلقينها آلية الدّفع عند مجيء المَغصة... بينما أبي يونس قام بالصلاة من أجل تيسير الولادة ووالدي قرأ سورة الرعد ودعا الله تعالى لها بقدم الخير... ابنتي فرات كانت تسترق النظر من شق الباب كي تواكب الحدث لحظة بلحظة وأنا واقف في الصالة أراقب.

المراقبة تجعلك تعيش حياة الآخرين دون أن تشعر بشعورهم،
هي ممتعة للحظات عندما لا تملك ما تفعله، ولكنها سيئة جيداً
إن أطلت بها وأصبحت العمل الوحيد الذي تقوم به.
أعرف ذلك يا صديقي عابد فلا داعي لأن تظهر أمامي الشخص المثالي
في كل موقف! فكل واحد منا لديه أحمال هو وحده يحملها فوق أنفاسه
فلا ضير إن وقف قليلاً يلتقط ما وقع منها.
دعنا يا صديقي نخوض السباحة في بحر الذكريات، أتذكر يا عابد كيف
فرحنا بقدوم ابني أكثر من فرحتنا بقدوم العيد! يا لها من عنصرية
تحتفظ بها النفس البشرية!
الأمر الشخصية تأتي دائماً في المقدمة وأي أمر آخر يكون ملحقاً بها،
مع أن كل الأمور التي تحيط حولنا تنعكس علينا إما بالفرحة أو الحزن،
وأن أفرح وحدي ليست بفرحة كبيرة مستمرة! هي فرحة مؤقتة لها
توقيت محدد وتمضي، كذلك هو الحزن له ميقات من السهل جداً
التخلص منه... الأشخاص المتفائلة وحدها تعرف كيف تعيش.
ولادة ابني الصغير جعلتني أنسى كل الأشياء السيئة التي حصلت معي،
شعرت بولادته أن الحزن لا محل له في الحياة، كي تعيش على هذا
الكوكب عليك أن تكون سهلاً بسيطاً غير معقد، يكفيننا عقد ومشاكل لا
طعم لها...

لذا يومها تركت موضوع اختيار الاسم إلى بيسان بعد موافقة والدي
طبعاً، فهنا العادة كما تعلم، تقول: أن أول مولود ذكر للعائلة عليه أن
يحمل اسم جدّه دونه عن غير الأسماء، بينما والدي لم يُلزمنا على
توريث اسمه فترك الاختيار لنا، وبدوري أنا الزوج المثالي أعطيت
حرية القرار إلى بيسان تجنباً لأي مشكلة قد تحصل! ومنه عادت هي
إلى اسم نبيل على اسم والدي أدامه بالصحة والعافية.
لقد انتهى العيد مع بريق خاص بالرغم من غياب أشياء كثيرة، إذ
استطاعت الفرحة أخيراً أن ترتدي ثوب فضااض سترت تحته الألم.
سبحان الله جبار الخواطر يُنير عتمة الأحزان بشمعة أمل ويروي
المحتاج بسحابة صبر ويكرم الضعيف بتقوى الإيمان.

القرار سيد الموقف

داخل كلّ منّا امرأة داخلية...

وما يراه الآخرون ليس إلا انعكاس لحقيقة تلك المرأة.

اقترب مني خادم المسجد ليخبرني أن الوقت متأخر، ولا بد من العودة

إلى المنزل، لم أكن أنوي الرجوع باكراً، لقد أردت الحصول على

بعض الراحة والهدوء علني أستطيع المتابعة فيما لو عدت...

أو بالأصح أردت الانفراد قليلاً مع نفسي كي أعرف إلى أي شاطئ

سأرسو، لكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي

السفن...

قمت متجهاً نحو البوابة ثم تابعت المسير خارجاً بخطى متثاقلة حيث لا

هدف أصل نحوه ولا عنوان أسير إليه، لكن أين المفر؟ أخذت خطاي

طريق المنزل بصورة غير إرادية بينما كنت شارداً الذهن! يا ويحي من

لحظات الشرود تلك، بدأت تنخر في هواجسي كنخر السوس في الخشب
لثُطِّقَ فيها متى تشاء....

إلى متى سنبقى مُهمشين؟ تكلمة لعدد المحافظات فقط! أيعقل أن تكون
محافظة حلب اسم شُطِبَ من خارطة سورية ونحن آخر مَنْ يعلم؟!
المدن الساحلية لا غبار عليها فهناك دائماً مَنْ يقوم بتنظيفها على أكمل
وجه، والعاصمة تمارس نشاطاتها كعادتها من الاحتفالات بِدأً من
الاحتفال بعيد المرأة إلى الإحتفال بعيد الشجرة، وهنا في حلب اختفى
أكبر مهرجان للقطن كان يقام في بداية الخريف من كل عام، ولم يتعذب
أحد المسؤولين بالسؤال عليه أو التعليق ولو بكلمة واحدة!
كذلك البرامج التلفزيونية كما هي! لم يتغير فيها شيء من برنامج صباح
الخير وطني إلى البرامج العلمية بأنواعها... تزواج الحيوانات، هجرة
الأسماك وكيف انقرضت الديناصورات... فوائد البطيخ والغذاء
المتوازن، وطرق تخزين المأكولات... مسابقات الجمال للأطفال وسوق
الصرف والمال.

يا إلهي، لا شيء عن حلب! حتى مذيعات نشرات الأخبار بكامل أناقتهن
من التبرج المبالغ، لا حداد على الشهداء الأبرياء ولا هم يحزنون... في
كل نشرة نترقب أن تلقى أية بقعة ضوء على ما يجري هنا وما نعانیه

كل يوم.... حلب رثة الصناعة السورية وعقدة تجارتها، فيها أكبر تعداد

سكاني عن باقي المحافظات... ألا يوجد شيء عنها...؟

عادي... بل عادي جداً أن يكون الجواب عادي لسؤالك كيف الحال؟

دائماً وأبداً عادي... عادي!

المطربة الحلبية ميادة بسيليس غنّت أغنية في أوائل تسعينيات القرن

الماضي تحمل عنوان (عادي) كأنها لهذا الزمن!

الوقت يمضي ونحن ما زلنا نُحلل ونُحلل لنختصر النتيجة الى أبسط

صورها ألا وهي الموت، الموت في حلب كائنٌ ما كنت هو القاسم

المشترك الأكبر في كل معادلة مستعصية الحل، والهروب منه الى

المجهول يُعتبر موت أيضاً لكن بشكلٍ آخر.

لقد علّت موجة الهجرة الى الخارج في الآونة الأخيرة بشكل مرعب،

وبدأت الناس تركبها رغم الخطورة الكبيرة، خصوصاً الشباب الذين

فقدوا عملهم أو الذين أنهوا الدراسة الجامعية، كذلك العائلات المنكوبة

التي لم تعد تحتل المزيد من الضغوط النفسية اختارت الهجرة إلى

أوروبا عن طريق تركيا.

هناك الكثير من أصدقائي رحلوا مُودّعين كلّ ما مضى على أنه كابوس

طال حضوره، حملوا معهم حقائب مليئة بالذكريات مع تذاكر تتجه إلى

حياة جديدة في بقعة أمنة من بقاع الأرض، معظمهم أدار ظهره وذهب

دون رجعة، والبعض منهم قال إنه غياب مؤقت فتركوا طريق العودة مفتوح... .

قضية الانسلاخ عن الوطن ليست كباقي القضايا التي نتكلم عنها وندافع عليها، إنها قضية حساسة ومؤلمة جداً، مهما كانت مقومات النزوح مغرية يبقى طعمها مرّاً لاذعاً ومفعولها مؤقت مثل المسكنات التي تعطى للأمراض التي تكون مستعصية العلاج...

لكن مهما قلنا يبقى لكل شخص أسباب تضعه داخل متاهة كبيرة لاتخاذ أي قرار، استثناء الذي باع ضميره أبخس الأثمان واستغل الحرب في غاياته الدنيئة في مشاركة لقمة عيش المواطن المنكوب مادياً ونفسياً، نجده المستفيد الوحيد لتلك الفوضى، بل ويتمنى أن يطول الوضع على ما نحن فيه كي يستفيد أكثر وأكثر...

ولائم الألم التي تصيب المرء بالتخمة كقيلة بأن تجعله يتقيأ ما قام على تناوله سابقاً من مقبلات فرح شهية، فيصبح فارغ جائع يبحث عما يسد شغفه ويحقق أحلامه.

أما أنا أرى نفسي دائماً ضمن دولاب أدور داخله ويدور بي، مما جعلني أفكر بالهجرة أكثر من مرة، لقد أغلقت نوافذ الأمل في وجهي ولم أعد أستنشق سوى هواء السفر عن طريق باب الهجرة.

سمع عابد ما أفكر به ولم يصدقني، قائلاً لي:

غريب يا شريف! أفكارك هذه جديدة عليّ! لقد تغيرت كثيرًا،

من أنت يا صديقي؟!!

أجبتَه لأول مرة بعدم مبالاة لرأيه، ودون انتظار أي كلمة منه:

لا تسألني من أنا؟

أنا نفسي نسيت من أكون

نسيت اسمي، نسيت تاريخ ميلادي

حتى أنني نسيت حبي المجنون

أشعر بفقدان الذاكرة، أركض في الطرقات المهاجرة

أبحث في المحطات، في الموانئ وفي المطارات المعقّفة...

عَلَّني ألقى روعي التائهة على أمواج البحر هائمة

بين طيات الغيوم السارحة مع رياح الشمال الجارحة

في كل مكان... لم أجد ذاتي المصون!

قد تشارف اللعبة على الانتهاء وروحي ما تزال في اختباء!

إذا عرفت من أكون، أخبرني قبل أن أصاب بالجنون.

بعد كل هذا الهراء وجدت نفسي أقف أمام المبنى المنكوب أراقب

كعادتِي! لا شيء يصف ما شاهدت من خراب، بدى المشهد كساحة

معركة يفوح منها رائحة الهزيمة، أكوام الحجارة منتشرة في كل مكان،

لقد تدمر جزء كبير من الواجهة الأمامية للمبنى الذي كنا نقتن داخله بعدما هوت عليه قذائف الإرهاب من البعد الخارجي.

استيقظنا جميعاً في صباح الأمس على رائحة السميد المحمص بالسمن، كانت بيسان تطبخ المأمونية بناءً على شهية فرات (المأمونية وجبة من السميد المحمص بالسمن ثم صبّه فوق ماء يغلي مع السكر وتزيّن بالقشدة البلدي والفسق الحلبي المجروش لكن في تلك الظروف تم الاستغناء عنهما وبقي مرشوش عليها القرفة الناعمة، والمأمونية نوع من التحلية تُقدم في المناسبات السعيدة وسُميت بذلك نسبة الى الخليفة العباسي المأمون الذي كان يحب تناولها كل صباح ومدينة حلب مشهورة بها جداً ونلفظها بالعامية مامولية).

تناولنا الإفطار معاً ثم ذهب بيسان إلى عند أهلي لتضع فرات عندهم، كي تتوجه بعدها مع أمي تيريزا والرضيع نبيل إلى الطبيب ليقوم بعملية ختانه، لقد أصبح عمره شهراً كاملاً وكان لا بد من ذلك قبل أن تمضي به الشهور، بينما أنا توجهت إلى عملي بالجامعة وأبي يونس ذهب إلى عمله أيضاً، كانت الخطة بأن تبقى بيسان عند أهلي لبعده الظهر لتعود قريب العصر إلى المنزل مع أمي تيريزا والأولاد.

خرجت من الجامعة في حوالي الساعة الرابعة عصراً، لأذهب بعدها إلى عملي الإضافي في المقهى، وإذ بصوت قوي عالي التوتر كدوي

الرعْد خرق حاجز الأمان حتى وصل إلى أعماق الخوف، نظرت اتجاه الصوت فرأيت سحابة سوداء قابضة فوق سماء منطقتنا، مما جعل من نبض قلبي يتسارع قافراً باتجاه الانفجار.

لا أعلم كيف اختصرت الطريق إلى ثلثه، وصلت إلى مدخل الحي وأنا أركض نحو الأزدحام... أتعثّر بمشاهد مأساوية رسمتها بنات أفكارى على جدارية الاحتمالات السيئة، أصابني انهيار شديد للهجة حين رأيت واجهة المبنى الذي كنا نقطن فيه منهارة أيضاً، وعروسة فرات الكبيرة تتدلى من غرفة نومها، متعلقة بستارة نافذتها تتأرجح وراء القضبان الحديدية التي برزت بعد تجردها من الحجارة...

أكوام من الدمار شدتني إلى مكان الخراب غير أبه بأوامر فريق الإنقاذ عن الابتعاد من الموقع، كل ما أريده الاطمئنان على عائلتي فخطوط الاتصال خذلتني كعادتها ولا أعلم مصير كل واحد منهم في هذه اللحظة! رميت بنفسى في أحضان الأناقض، عانقت الغبار المنبعث من أنفاسها الأخيرة وأنا أفتش بينها عن أحلامي، عن آمالي وآلامي، وإذ بأنينٍ توغل بقوة في دهاليز مسامعي: ساعدوني... ساعدوني.

قفزت إلى مصدر الاستغاثة، فرأيت جود عالق بين طوابق الدمار، صرخت بأعلى صوتي:

ها هنا ناجٍ... تعالوا وأنقذوه

سار عوا... ارفعوا الحجارة... احمלוه

استخرنا جود بأعجوبة لم أرى مثيلها، كان وجهه داميًا، ولباسه ممزق
تغطيه طبقة من الغبار الغادر، أول ما قاله كانت كلمات الخوف وهو
يرتجف من المجهول، تأتأ قائلاً:

م ماما.... ب بابا أختي جو جوري في البيت
سألته: أنت أين كنت يا جود؟

أجابني: أ أنا كِن نت في مدخل الدرج.

يا ويلاه... لن أكن أدري ماذا أفعل وكيف أتصرف!

استدرت إلى صوت ينادي: شريف... شريف أنت هنا؟

إنها ببيسان! لقد كانوا عند أهلي لحظة القصف والحمد لله، لكنها أتت
تبحث عن والدها فهي لم تكف عن المحاولة بالاتصال معه، وهاتفه لا
يرن!! بل كان يفصل على الفور دالاً بأنه خارج الخدمة....

وبعد ساعتين من انهيار المبنى وإنقاذ ما تمّ إنقاذه من العائلات التي

كانت تقطن فيه... ظهر من تحت الركاب كتلة من اللحم المهروس

متجمعة على بعضها البعض، إنهما أبو الجود وزوجته السيدة ليليان

أذرهم متشابكة وبينهما جوري يرحمهم الله... منظرهم شرح على أنهم

كانوا مجتمعين في الصلاة في لحظة وداع عرفوا النهاية منها.

دخل جود في نوبة صراخ هيستيري بعدما فقد السيطرة على تصرفاته،
كان يلطم نفسه بقوة وهو يبكي... احمرت عينيه من شدة الغضب، رفع
رأسه الى السماء يسأل ربه:

يا الله لماذا القتل؟ يا رب خذني معهم... خذني يا رب.

احتضنته بذراعي بعد حقه بحقنة مُهدئة في الوريد من قبل أحد فريق
الإسعاف، ثم حملته بمساعدة جارنا صاحب محال الألبسة، إلى منزل
أهلي حتى يعتنوا به، بعدها عدت الى مكان الدمار... كانت بيسان مثل
المجنونة تفتش بين الركام وتصرخ: أبي أين أنت؟

حلّ الظلام على المنطقة وأبي يونس لم نجد له أثر أو نسمع عنه خبر،
حينها أعلن فريق الدفاع المدني أنه سيأتي في الغد ليتابع البحث عن
باقي الضحايا المفقودة...

ليلة الأمس كانت من أطول الليالي التي عشتها، لقد جفانا النوم ولم
يغمض لنا جفن في انتظار قدوم ضوء النهار.

وعندما خطت السماء أول ضوء لتعلن بداية اليوم أشرعت بيسان
بإرضاع نبيل رضعة مشبعة، بينما أنا ذهبت إلى ورشة الخياطة التي
يعمل بها أبي يونس، وهناك أخبروني أنه خرج منها بالأمس الساعة
الثالثة من بعد الظهر تقريباً، هذا يعني أنه كان في المنزل حين قُصِف!
لأن الطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام.

رجعت الى موقع الحادث، كانت بيسان قد سبقتنني إليه قبل برهة تنتظر
قدوم فريق الإنقاذ، لم يكن الصبر حليفنا آنذاك، فقررنا التوغل بمفردنا
وسط تلال الدمار، وبعد ساعة من البحث والتفتيش نادتنني بيسان:

شريف... تعال بسرعة يوجد شخص هناك في الزاوية!

اقتربنا أكثر نتحسس الرجل المرمي هناك، لقد كانت ملامحه غير
واضحة، فالدماء أكلت وجهه والحجارة المتكسرة غطته، لم يظهر منه
سوى كفه الأيسر المهشم....

يا إلهي! لقد كان أبي يونس، عرفناه من إصبع يده المقطوع، ففي بداية
مشواره في الخياطة فقد عقدة من سبابة يده اليسرى عندما كان يقوم
على قص طبقات القماش بالمقص الكهربائي، لقد هرب من بطش
داعش ليلقى حتفه هنا...

الموت لا يعرف له مكان طالما حان الموعد، ونحن علينا أن نكون
مستعدين لاستقباله في أي مكان وأي لحظة، نحن حمقى عندما نترقب
ولادة السلام من أرض تُضاجع الإرهاب كل يوم.
انتهت مراسم الدفن قرابة الظهر، ومع أشعة الشمس العمودية تختفي
الظلال، ولا وجود لأي احتمال سوى ما نعيشه في الحقيقة.

امتلاً منزل أهلي بالجيران والأصدقاء، لقد أتوا حاملين واجب العزاء
معهم لي ولعائلتي... أبي يونس استشهد بالأمس من حصيلة سقوط قذيفة

هاون على المبنى الذي كنا نقطن فيه، زوجتي انهارت من حدة الفاجعة
وأمي تيريزا غرقت في واحة الصمت.

وقفت جانباً أمام الركاب أتأمل ما بقي من نفسي وهي تودع قوافل السلام
الأخيرة، تتساءل للمرة الألف عن قيمة الآلام التي نشعر بها، والأحزان
الثقيلة التي نحملها مقابل الصمود!

أشباح المكان تتجول من زاوية إلى أخرى تحمل ملامح أشخاص غريبة
عن هنا! يقلبون الأنقاض عسى أن يجدوا شيئاً تحتها، كل واحد منهم
يحمل بيده مصباح صغير كي يضيء البقعة التي يحتلها، يبدو أنهم
لصوص على الأغلب! ينتقلون بين الأحياء يبحثون عن الخراب عسى
أن ينالوا بعض الغنائم التي تركها الدمار ورائه.

أتى صوت من إحدى الزوايا شق عمق الظلام بنبرته الحادة، قائلاً لي:
كل المنطقة تم مسحها، لا تتوقع أن تجد شيئاً ثميناً، ليس لك
نصيب هذه الليلة، ارحل يا رجل...

صوت يقول بحزم في داخلي:

ألم تسمع يا رجل؟! قال لك ارحل...

سأرحل يوماً ما يا صديقي عابد، لكن لا بد أولاً معرفة كيف وإلى أين؟!
ألم تشعر بي يا صديقي؟! أنا في صراع مع العقل والقلب؟! ألم أقل لك
أني مشغول في قرار مهم!

ليكن في بالك يا صديقي أن معظم القرارات التي نتخذها لا تكون من منطلق أي حرية كانت، وإنما بناءً على الظروف التي تحيط حولنا، فهي الحاكم الظالم الذي يدّعي البراءة دائماً لتُلزِمنا على اختيار المختار لما نحن فيه، والباقي ليس سوى وهم اخترعناه وقمنا على تصديقه، كمن كذب الكذبة وصدقها!

ومنذ زمن أعيش في حرب بين قلبي وعقلي، فمن الصعب جداً معرفة من سيفوز عندما يكون طرفا الصراع ذات القوة وذات نقاط الضعف. ما بك يا صديقي؟ صمتك هذا يضعني دائماً في حالة هذيان...

قل أي شيء... أني أسمعك

صوت أخبرني عبارة أسمعها للمرة الأولى، قائلاً:

نقاط الضعف هي ذاتها منبع القوة، حين تُجيد كيفية استخدامها.

القوة تكمن في الإيمان

وصلت إلى مدخل الشارع الذي يؤدي إلى منزل أهلي، كانت المباني ما تزال تقاوم الغرق في بحر الظلام الدامس، والأشجار على قارعة الطريق بدت مثل طواحين الحقول المهجورة، تطحن من بين جذوعها رجال يطيطرون نحوي! كل واحد منها على حدا، وهم ينادون باسمي بأعلى الصوت: شريف... شريف تعال بسرعة... أصابني الجمود بضع لحظات، لم أع أين أنا وماذا حصل؟ لكن كنت متأكد أن أمر سيئ قد حصل! كارثة، مصيبة؟ لا أعلم!

هل هو أبي؟ هل غلبه الحزن يا ترى فأصيب بنوبة قلبية! هل هي أمي التي تعبت من استقبال الآلام؟ فاستسلمت للضعف! أم ببسان؟ لقد تركتها منهارة في حالة سيئة، فهي التي وجدت أبي إلياس تحت الركام، ولم أتفوه معها بكلمة أو أجبر بخاطرها منذ ذلك الحين... لا أعرف! ربما أمي تيريزا وقعت في غيبوبة من شدة الصدمة! أفكار وأفكار تحلق

وتدور فوق رأسي البائس، وكلها تنقر ما بقي من حبات الأمل البيضاء التي كانت مخزنة إلى مثل هذا اليوم الأسود.

اقتربت من مجموعة الرجال مسافة كافية سمحت لي برؤية ملامح وجوههم، لقد عرفتهم على الفور إنهم شباب المنطقة الذين يقطنون معنا في الحيّ، وأنا أتفقد الوجوه واحد تلو الآخر علّ واحد منهم يقول لي ما سبب كل هذا الضجيج الذي شقّ سكون الليل! أتى على مسامعي ما قاله أحدهم وهو يلهث قائلاً:

شريف، ابنك نبيل... لقد اختفى!

لم أصدق بادئ الأمر، فكيف يحصل ذلك والبيت مزدحم بالناس! ومن الذي أخفاه؟ ولماذا؟ أيعقل أن يضع من تلقاء نفسه طاقة الإخفاء ويختفي هكذا عندما رأى ما رأى من الحياة التي نعيشها هنا؟! ما بك يا رجل؟ هل جننت؟! ما بك! إنه يقول لك أن الرضيع اختفى، وهذا لا يعني سوى أمر واحد هو أن الولد مخطوف، وأنت لست بهنا! اصحى يا رجل...

هزّنتي البنت الواقعية بكلامها هذا، نعم... الولد مخطوف ليس هناك تفسير آخر، نظرت حولي فلم أجد أحد! لقد اختفى الجميع فجأة حتى دون أن يقولوا عبارة مواساة أو كلمة وداع! الخبر السيئ هنا يأتي مباشرة بلا مقدمات، ويبقى ثقيلاً لا يرحل بسهولة كما أتى.

أصوات الصراخ والنحيب سحبتني إلى منزل أهلي من وسط الظلام المطبق دون الحاجة إلى ضوء المحمول، كنتُ مسلوب الإرادة، مسلوب التفكير، مسلوب الأمان ومسلوب الثقة... مسلوب كل الأشياء التي ظننت يوماً أنني لم أفقدها! لم يكن بحوزتي أي شيء استند عليه! حتى صديقي عابد لم أجده بجانبني في هذه المحنة.

كانت بيسان تصرخ بلا هوادة مثل المجانين، مسكت بمعطفي وهي في قمة الغضب ترمي بكلمات لم يكن مفهوم نصف ما قالتها! لكنني سمعت ما سمعت من أسئلة وعبارات منها: أين كنت هذا اليوم يا شريف؟ هل انتهيت من نزهتك؟ في هذا اليوم العصيب ماذا فعلت غير أن تكون تمثال! ماذا أفادني وجودك عندما احتجت لك؟ لقد فقدت ابني وأنت لم تكن الرجل الذي يحمي عائلته، انزل عن برجك العاجي يا رجل، وعيش الواقع الذي نحن غارقين فيه حد الأعماق، كف عن التجرد من المسؤولية وأعيد لي ابني.....

صبت غضبها كله عليّ بينما أنا لم أنطق ببنت شفة، ماذا كنت حينها، سأقول؟ ولا كلمة تستطيع إخماد النيران التي كانت مشتعلة في صدرها، لقد نسيت فاجعة موت والدها عندما كانت حياة ابننا نبيل في خطر وضمن دائرة المجهول.

يبقى الموت ضعيف أمام الحياة، الموت مقابل الحياة ليست موازنة عادلة، تبقى الحياة غالية طالما هناك روح عالقة في الجسد.

توجهت إلى والدتي علني استنتج كيف اختفى الرضيع ومتى؟

أمي لم تكن في حال أفضل من زوجتي جراء الصدمة التي تلقتها من اختفاء نبيل، استطعت بعدها أن أسحب الكلام من شفتي شام التي أخبرتني أنه كانت هناك سيدة متواجدة بين الحضور في مجلس عزاء السيدات عرضت نفسها للقيام بإرضاع نبيل، ورافقتها إلى الغرفة الصغيرة التي بجانب باب الدار، وسلمتها الصغير بيديها كي تقوم على إرضاعه، ثم جلست معها تنتظر انتهاء الرضعة، وإذ بأصوات المشاجرة علت في مجلس عزاء الرجال، خرجت بضعة دقائق كي تستطلع الأمر ثم عادت إلى الغرفة الصغيرة...

أخبرتها السيدة أن نبيل أخذ رضعة مشبعة ثم غرق في النوم من شدة تعبته، كان هناك جسد صغير ممدد على الأريكة ومغطى بذات بطانية نبيل، حاولت شام الاقتراب منه للتأكد على أنه بخير، لكن السيدة وقفت أمامها قائلة لها: اتركه ينام بعض الوقت إنه مرهق من الجوع، لقد بكى كثيراً اليوم...

تابعت شفتي سرد القصة حيث قالت إنهما خرجتا معاً من الغرفة وتركا نبيل نائم داخلها، ثم ودعتها قائلة أنها ستعود المساء إذا احتاج

نبيل روضة أخرى وأن رقم هاتفها مقيد عند بيسان ثم غابت عن الأنظار...

بعد ساعة تقريباً عادت شام إلى الغرفة كي تتفقد نبيل فوجدت مكانه دمياً بحجم رضيع راقدة مكانه! حينها عرفوا باختفائه وأن السيدة قامت بخطفه ووضعت مكانه دمياً حتى لا يشعروا بالجريمة ويتثنى لها الابتعاد عن المنطقة بأكبر قدر ممكن.

توجهت إلى بيسان أسألها عن السيدة المجهولة بينما شام كانت تشرح صفات السيدة إلى بيسان، وبيسان كان جوابها النفي دائماً، لا تعرف المرأة الغريبة وليس لديها أي رقم هاتف كما ادعت! جلست أربط الأحداث مع بعضها فوصلت إلى تفسير واحد لا تشوبه أي شائبة، المشادة الكلامية التي حصلت بين الرجلين في مجلس عزاء الرجال قامت على تشييت انتباه شام فتركت السيدة وحيدة في الغرفة، وهذا ساعد السيدة بالحصول على فرصة لوضع دمياً بدلاً من نبيل، ليبدو إلى شام عندما تعود إلى الغرفة أنه نائم... لكن من الذي أخذ الطفل؟ وأين اختفى؟

أجابتنى إحدهن -بنات أفكارى- بكل ما تحمله من ثقة، قائلة لي: لا بد من وجود شخص آخر متفق مع السيدة المجهولة ليأخذ منها نبيل ويعطيها بدلاً منه دمياً.

نعم، هكذا يبدو يا عزيزتي، بل ربما الرجلان أيضًا اللذان فعلا الفوضى
كانا على اتفاق مع السيدة كي تتم العملية بنجاح، إنهم عصابة قاموا
بالتخطيط ونفذوا وهم يعرفون أن الكل مشغول بالعزاء والازدحام، ما
عدا الفوضى العارمة التي كانت متواجدة في المنزل مما سهل تنفيذ
عملية الخطف.

بيسان لم تتوقف عن النحيب واللطم وإلقاء اللوم على كل من يقف
أمامها واتهامه بالإهمال بسبب ما حصل! حتى أنها اتهمت فرات بذلك!
فرات الطفلة الصغيرة التي لا تدرك ما يدور حولها!
بينما أنا كنت ألومها في نفسي عما حصل حينها، فالطفل يبقى من
مسؤولية الأم أكثر من الجميع، لكن الوقت لم يكن مناسب البتة في بوح
ما بداخلي من لوم وعتاب.

عندما يصاب المرء بالفشل في أمر ما، أول ما يقوم به هو توجيه إصبع
الاتهام على الآخرين والظروف المحيطة حوله في سبب حصول هذا
الفشل، وهذا كله كي يخرج نفسه من الموضوع كما تخرج الشعرة من
العجين.

الاعتراف بالفشل يتطلب قوة كبيرة، والقوة الأكبر عندما نقوم بذلك
ونحن في حالة ضعف.

ثلاثة أيام مضت ولا شيء جديد في قصة ابني نبيل، نبيل الرضيع لم يصلنا عنه أي خبر، لقد أخبرنا الجهات الأمنية المختصة، وهم بدورهم أتوا إلى موقع الحادثة وسئلوا كل واحد منا على حدا، واستخلصوا النتيجة نفسها التي وصلت أنا إليها، السيدة المجهولة اختفت من حين الحادثة، كذلك الرجلان اللذان قاما بافتعال الفوضى آنذاك لم نجدهما، بالرغم من عمليات البحث الكثيفة التي قمنا بها...

بالإضافة إلى كل ما سبق لم يتصل أحد لطلب الفدية أو أي شيء آخر! ربما تم تهريب الطفل إلى أوروبا عن طريق تركيا أو لبنان، هناك حوادث خطف كثيرة مشابهة وكلها قيدت ضد مجهول! وبيسان لا تنفك سائلة: أين نبيل؟ ألم تأتي به بعد؟!

لكن ما شغل تفكيري بشكل دائم هو السؤال الذي طرحه علينا ضابط الأمن حين أتى لأخذ الإفادة: هل لديكم أعداء؟ هل هناك شخص محدد تريد اتهامه بعملية خطف الصغير؟

بيسان والجميع أجابوا بالنفي، حتى أنا أحببت حينها بالنفي قائلاً: لا، ليس لدينا أعداء ولا أتهم أحد، بالرغم من أن جميعهنّ -بنات أفكاري- اتجهنّ إلى متهم واحد في قضية الخطف، بينما صديقي عابد ظهر فجأة ووقف لهن بالمرصاد، ولم يترك لي فرصة كي أتكلم مع الضابط عما يجول في خاطري من أفكار.

خوف ما بعده خوف، أن تكون خائف من قول حقيقة ما يختلج في صدرك من أحاسيس ومشاعر، بل إنه لأمر مرعب أن تخفي معلومة هامة مقابل المحافظة على علاقة مهمة!

لم أكن أريد أن أفتح باب من الصعب جدًا إغلاقه طالما خلف هذا الباب عواصف وأعاصير.

في بعض المواقف تكون التضحية ثمينة، ولا أحد يعرف قيمتها سوى الذي يقوم على تقديم القربان.

لا أعرف ما الذي فعلته! لكنني كنت متأكد أن خسارتي ستكون أكبر إن قلت ما يجب أن يُقال، فما دامت المسألة مجرد أوهام لا أستطيع أن أتكلم بها...

لم يكن هناك دليل قاطع يُدين عم بيسان في القضية، فهو الشخص الوحيد الذي أظهر عداوته بصورة واضحة عندما تزوجنا، حيث قام بالتهديد آنذاك بشكل علني بأنه سينتقم يومًا ما من ابنة أخيه، وقد وجد الوقت المناسب لتنفيذ التهديد حين علم بفاجعة موت أبي يونس!

في صباح اليوم الرابع اتصلت بي الجهة الأمنية وأخبرتني أن هناك طفلًا وُجد على باب كاتدرائية مار الياس الكائنة في ساحة فرحات، قالوا إن الطفل المتواجد يحمل شبه كبير وصفات مشتركة مع طفلنا

المفقود، أفكار قوية عصفت في رأسي المتآكل، خربت كل ما تبقى من قواعد وأسس ثم تركته كرة مسطحة ومضت! ماذا لو لم يكن هو؟ نسينا كل الأحداث السابقة التي حصلت معنا منطلقين نحو مقر رعاية الأسرة لتتعرف على الطفل، فهناك وُضع الطفل المخطوف لحين التعرف عليه من قبل ذويه...

وصلت إلى المركز برفقة بيسان، لكن كل واحد منا شخص آخر كأننا غرباء عن بعضنا البعض، كان الطريق صامت أحرص لم يُقال فيه أي كلمة، ولم نُؤدي أي حركة من حركات الجسد المعتادة التي تحصل بين الخصوم، فكم تمنيت حينها أن ترمقني بنظرة ثابتة تفتح بيننا طريقاً للحديث، لكن لم يكن هناك أي ثغرة تمكّني من العبور خلالها، حتى لغة الإشارة فقدناها! في موقف واحد فقدنا كل شيء يمكنه أن يكون جسر يوصلنا مع بعض، كنا تماثيل متحركة أو مجرد ألعاب خارجة عن السيطرة ...

قد تأتي حادثة في الحياة بمقدورها أن تكشف أحاسيس ومشاعر غريبة لم تكن موجودة من قبل! لتصبح بعدها أسلوب في قاموس التواصل العائلي... وقد يؤدي تراكم الأحداث إلى طريق غامض خالي من أي توقعات، هناك دائماً أسباب لوصولنا إلى ما نحن عليه.

بعد شهرين من الزمن قمت على توصيل جود إلى الجمعية الأرمنية لحماية الأطفال دون سن الرشد الذين فقدوا أهلهم في الحرب، فهو بحاجة لرعاية خاصة وإعادة تأهيله نفسياً حتى يستطيع متابعة الحياة بمفرده، لكن الحقيقة أردت إبعاده عن ابنتي...

فرات تعلقت به كثيراً وخفت من تطور تلك العلاقة فيما بعد إلى أبعد من الصداقة، إلى الحب...

الأحداث التي ألمت بنا جعلت فرات قريبة جداً من جود، أقرب من أمها وجدتها حتى أقرب مني أنا والدها! هو كان الوحيد بجانبها وهي الوحيدة بجانبه، حادثة وفاة جدّها بطريقة مأساوية، حزنها على صديقها جود وتعاطفها معه، وفقدان صديقتها جوري جعلها تتقرب من جود كثيراً، والمفزع من هذا كله حادثة خطف أخيها نبيل ثم رجوعه إلى حضن أمه بعد أيام عصيبة، كانت أسوأ ما مرّ بها من خوف وهلع من احتمال فقدان الأشخاص الذين نحبهم.

موقف واحد في الحياة بإمكانه أن يكشف لك ما لا يمكنك معرفته في حياتك كلها، لكن المفاجأة يا صديقي عابد أنك تتخطاه كباقي المواقف! إلا أن مع كل موقف تمر به يرحل منك شيء ليحل بدلاً عنه شيئاً آخر، شيء يقوم على احتلاك وإستغلاك إلى أن تتغير موقف بعد موقف

حتى تصل إلى النهاية وأنت لا تعرف نفسك! كالموت البطيء يسري
في الأوصال ليسرق عمرك يوم وراء يوم.

حزين أنا يا صديقي، حزين جداً ولا أحد يعرف ما سبب حزني، بل لا
أحد يعرف أنني حزين، أو ربما لا يرون ذلك لأنني لم أسمح لغيرك
الاقتراب مني كما اقتربت أنت يا صديقي، لا أحد يعرف ألامني
وخسائري كما تعلمها أنت، لم أغضب أمام أحد ولم أبكي على العلن كما
أفعل معك، لذلك يروني شخص لا يحزن...

الحقيقة يا عابد أنك وحدك تستطيع إخراجي من ذاك الحزن، ولكنك
بعيد لم أعد أراك كما قبل، ولم أعد أسمع صوتك! الواقع أنني لم أعد
أسمع صوتي، لقد اختفى صوتي يا صديقي...

لقد رحلت ورحل صوتي معك، وتلك الحالة تغرقني حزناً، أنا أموت
شوقاً لك، أخشى أن أكون ضائع، تائه ومنهك من انتظار رجوعك...

اشتقت إليك يا عزيزي، اشتقت إلى نفسي فلا تطل الغياب.

صوت بكائك لا يفارق مسامع قلبي عندما غبت عنك ذات مرة ومن ثم
عدت إليك، طلبت مني يومها أن لا أرحل عنك، بل قلت لي: أرجوك لا
تغيب مرة أخرى، اعتبرني كما يحلو لك... أتريدني صديق؟ أنا لها،
أتريدني أب أنا لك أفضل أب؟ أتريدني أخ؟ أنا الأخ الوفي... أنا لك كما

ترغب؟ ولن أسألك لِمَ ولن أعترض، المهم أن نكون معًا... وها أنت
ابتعدت! ابتعدت دون كلمة وداع!

أنا اليوم بحاجة ماسة لك يا صديقي أكثر من السابق، أنني أختنق من
الوحدة، نعم أنا وحيد بالرغم من ازدحام كل شيء حولي، غيابك يا
صديقي يخنقني بشدة، آه لو أملك زمام الزمن لعدت بك كما كنا، ولكن
هيهات بين الماضي والحاضر.

لقد أصبح الحصول على ليرة نظيفة صعب جدًا مع تفاقم الأحداث،
فكيف لي أن أحصل على مبلغ نظيف يمكّننا من العيش بأقل ما يمكن!
المقهى الذي كنت أعمل فيه دوامًا ليلي، هبطت عليه قذيفة بالخطأ
كالعادة، وهي عبارة عن أنبوبة غاز كانت تستهدف الحاجز الأمني الذي
بجانبها... أما صاحب المقهى لم يعد لديه رغبة لتصليحها وفتحها من
جديد، فقام على إغلاقها وتركها للذكريات، ثم هاجر إلى مكان ما في
بقاع الأرض.

بقي الراتب الوظيفي يناضل وحيدًا في الساحة، فأنا لستُ بارع بالعمل
الانفرادي كوني غير مطابق لمواصفات الجماعات المطلوبة من خداع،
نصب ونهب.

بينما بيسان لم تعد تعطي دروس خصوصية، لا لأنها لم ترغب بذلك بل
لأننا بتنا نمكث اثنا عشرة شخص في منزل أهلي المؤلف من غرفتين

وصالة، وأوضاع المدينة التي تزداد سوء زادت الطين بلة فلم يعد هنالك طلاب لوجوب ما يفرض وجوده بشكل إلزامي، وهو تأمين أبسط ضروريات الحياة متغلباً بذلك على العلم الذي بات للمُتَرفين فقط من أبناء الأثرياء.

كل ذلك جعلنا نشعر أننا أغراب وسط الأحداث الغريبة التي حصلت معنا، ولا يوجد أصعب من أن نعيش الغربة ونحن في حضان الوطن. بناء على ضوء ما سبق وللمرة الأولى اتحدت فيها بنات أفكاري مع بعضهن البعض مقررات ما يلي:

الهجرة إلى ألمانيا عن طريق إحدى طرق الموت المتوافرة، أنا مع زوجتي وفرات والرضيع نبيل ذو الثلاثة أشهر وبرفقتنا أمي تيريزا أيضاً، ألمانيا الدولة الأوروبية التي فتحت باب الهجرة حالياً... أما والداي فقد آثروا البقاء في حلب، كون شقيقتي شام مقيمة عندهم مع ثلاث أطفال بعد استشهاد زوجها في حادثة قصف الجامعة، حين كان يعمل سائق سيارة أجرة آنذاك وصَدَفَ مروره في تلك الساعة من القدر.

كان علينا تأمين مصاريف السفر قبل نهاية فصل الصيف لأن ركوب الأمواج يكون أشد خطورة برحيله، وفرص النجاة تنقلص الى ما لا نعلم... فما كان إلا أن تباع أمي تيريزا ما تملكه من مصاغ ذهب،

بالإضافة إلى قيمة منزلهما الذي قاما ببيعه في القامشلي قبل أن يأتيا
إلى حلب، بينما احتفظت بيسان بما تملك للأمر الطارئة.
قمت على تقديم الاستقالة من عملي في رئاسة الجامعة، وهذا ما فعلته
بيسان أيضاً فقد قدمت استقالتي في مديرية التربية، كانت فكرة العودة
غير واردة أبداً في عقولنا، هي رحلة باتجاه واحد ذهاب دون عودة.
غادرنا حلب دون وداع، لطالما كرهت لحظات الرحيل التي تطعن
القلوب بخناجر الصمت، حيثما الأرواح تغرق في بحر من الأسئلة
دون أن ترسو لجواب واحد! تسبح وهي تحاول النجاة لتقف على
شواطئ القرار كالفرجار، قدم مغروسة في أرض الوطن وقدم أخرى
تدور دون أن تعرف لها مسار محدد سوى ما تحلم به من سلام، ترسم
حلقات حولنا لنواجه بها إعصار اللجوء الى بلاد غريبة عنا في كل
شيء! طامعين بالأمان عسى أن يمسح قساوة الألم الذي رسمته الحرب
في أجندة الحياة، ومستقبل أكثر طمأنينة وراحة.
لم يكن سهلاً أبداً سلخ الروح عن الجسد، فقد بقي منها أجزاء كثيرة
عالقة في الجذور وما حصلنا عليه ليس إلا فتات!
هذه أول مرة نغادر بها مدينة حلب وكأننا أناس غريبة تراقب فقط
نظرات بعضها البعض بخفاء مثل جاسوس مزدوج مهمته نقل

المعلومات بين الحسّ والإدراك لتقوم بالمقارنة بين ما نشعر وما يحصل في تلك الرحلة، غير مهتمين بما يجول في خاطر أحدنا الآخر! وعدم رغبتنا بسماع أي كلمة جعلنا نعيش فيلم وثائقي صامت من العقود الغابرة.

لم نكن بمفردنا.... لقد كنّا موكب من المهاجرين في صحراء اللجوء الغامض، اتجهنا نحو الشمال إلى تركيا، على طريق فرعية مليئة بمطبات داعشية أو أي جبهة فارت وغارت هنا في تلك المنطقة. سألت نفسي ألف سؤال وسؤال: ما الأمر الذي يحسم وجوب اقتلاع المرء من الجذور؟ ليقوم بقذفه بكل قوة إلى الأعاصير! كي يرقص ألم في ساحات الدمار! يقطف القنابل وروداً، ويزرع المدافع أشجار! هل هكذا هي الأمور؟ تبدو بسيطة في بادئ المواجهة ثم تتكشف الخدعة! حيث لا يدرك الواحد منا حجم السوء الذي يقع فيه إلا بعد أن يغرق ويغرق في دوامة الخسائر...

مما لا شك فيه أن الربح في أي معركة له حصة من الغنائم، لكن الحقيقة غير ذلك البتة! فنحن مع كل مكسب نظن أننا ربحنا، بينما هو العكس تماماً! نحن نفقد في مقابلها شيء لن نلاحظ خسارته إلى أن نرتاح من عناء المعركة التي خضنا سابقاً.... ثم ما نلبث أن ندخل في

معركةٍ أخرى، وكلنا حماس كي ننتقم أولاً وكي نقوم بالتعويض عما
فقدناه ثانيًا، غير ابهين بما ستكون نتيجة العبث والمجازفة تلك!
ثم تتوالى المعارك ومعها تتوالى الخسائر حتى نصل إلى يوم نخسر
فيه كل شيء!

هدير عادم الباص الذي نحن نركبه يقضم سكون الليل بأسنان مُحركه
المهترئ، يقف بنا عند كل حاجز لا يعلم به سوى السائق! إلى أن
وصلنا نقطة معينة قريبة من الحدود بين البلدين، يتم الولوج بشكل غير
نظامي، أي بطريقة غير قانونية بالاتفاق مع الجهات المهربة بالعملة
الصعبة على كل رأس، فنحن لا نملك جوازات سفر أصلاً لنسافر بها!
فقد أخبرونا أصدقاء سبقونا درب الهجرة أنهم تمكنوا الوصول إلى
ألمانيا وبحوزتهم البطاقة الشخصية فقط أو دفتر العائلة، ونظراً
لصعوبة استخراج جوازات السفر في حلب، ولتكلفتها الباهظة قررنا
المغادرة دون أي وثيقة سفر...

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً بعد منتصف الليل، في بقعة وعرة
تفصل بين البلدين، مع جرعات من الهدوء الإلزامي يتخلله همس مُرشد
الطريق... كُنّا أكثر من عشرين شخص بيننا ستة أطفال، نتراقص على
إيقاع نبض قلوبنا بما يعزفه من رعب وخوف...

بيسان تحمل ابننا نبيل لترضعه متى احتاج، فالحمد لله والشكر لقد عاد الحليب إلى ثديها حين لاقت ابننا نبيل بعد أيام على اختفائه، وأمي تيريزا تهتم بفرات وهي المسؤولة عنها، بينما أنا كنت أحمل حقيبة كبيرة على ظهري وفي كل يد حقيبة سفر قياس وسط محشوة بالأشياء الضرورية فقط.

مشينا حوالي النصف ساعة حتى وصلنا إلى نفق محفور يمر تحت الأسلاك الشائكة الممدودة على حدود البلدين، وقفنا رتل واحد... الرجال في المقدمة والمؤخرة أما النساء والأطفال كانوا في المنتصف، ثم نزلنا الواحد تلو الآخر إلى ممر ضيق عرضه بعرض شخص متوسط الحجم، كانت الوجوه صفراء والتعابير متكررة، كل واحد منا يملك ذات العلامات، حتى الرعشة التي كانت تنتقل من أول المجموعة إلى آخر المجموعة هي ذات الشدة، كنا نسير في سيالة بشرية تعمل على وتيرةٍ حصرية لا مجال للتغيير، مما جعل الحجارة من تحت خطانا تصيح لتخبرنا بأنّ هذا لا شيء! وأن القوي سيأكل الضعيف...

بعد قرابة عشرون دقيقة من المسير في النفق الضيق، خرجنا بشكل فجائي إلى خندق قام بدوره بالترحيب بنا أفضل ترحيب، هَوينا في بطنه بلا هَوادة مما جعلنا مترامكين على بعضنا البعض، قمنا وتسلقنا بكل

حذر ثم انطلقنا مع صوت منخفض لأطيافٍ ملثمة تشير بالأيدي بأن
نسرع الخطى Hadi koş koş هيا اركض اركض....
نحن في الأراضي التركية.

الصمت نصف الحقيقة

لا تعطي كل العطاء ولا تحب كل الحب
لا تنسى كل النسيان ولا تبالغ بالذاكرة... اترك شيئاً لنفسك.
لم أكن أدري أن الصداقة التي بيني وبين عابد مهمة جداً إلا عندما
وجدت نفسي وحيداً في بلد غريبة وعلى أرض لم تطأ قدمي من قبل،
كل شيء حصل بسرعة رهيبية، وكأني في حلم نقلني من مكان إلى
مكان آخر وأنا مسلوب الإرادة، بحثت عن عابد كي أسأله عما حدث فلم
أجده! يبدو أن كلانا تغير لأحد الأسباب التي كنا نراها تافهة وغير
مهمة! فبعض الأحداث تحدد مواقف من الصعب تجاهلها.
لن أنسى وجه القمر في تلك الليلة التي غادرنا فيها حضان الوطن، كان
يملاً صدر السماء بضيائه ونوره، نظرت إليه بثبات مع ابتسامة عساه
يتعرف عليّ بسهولة! فما كان منه إلا وأن أشاح بوجهه خلف سحابة
حمراء، وكأنه يخبرني أنه غاضب مني ولا يريد مقابلي!

وصلنا مع طليعة الفجر إلى أقرب قرية حدودية، كنا في حالة سيئة بعد رحلة أكلت ليلة كاملة بينما كانت قبل الحرب تشبع من ساعتين مع الاستراحة.

أخذنا جناح متواضع في فندق كي نرتاح من عناء ما قطعناه ريثما يحين موعد الرحلة التالية، كان لا بد من فاصل بين الأشواط قبل المتابعة نحو طريق الهجرة، فابنتي فرات أنهكتها المغامرة بالرغم من الفرحة التي عاشتها مع لحظات الإثارة كالأفلام السينمائية المصورة، الحقيقة أن جميعنا كان متعب فأردنا أن نسترجع قوانا، حيث أمامنا ريح عاتية وأشرعتنا تمزقت من هول ما لقيناه...

كل شيء متوفر هنا الماء والكهرباء، الطعام بمختلف أنواعه والأهم من هذا كله الأمان الذي أضعناه منذ سنوات -سنوات الضياع- ولم نعد نشم رائحته! طريقة تصرفنا دلّت على أننا قادمون من كوكب بعيد عن أبسط حقوق الإنسان، والدهشة اقتاتت ما بقي منّا فنحن نسينا تلك الرفاهية المطلقة.

خلال أسبوع استطعنا أن نحصل على أقساط من الراحة لا بأس بها، اتجهنا بعدها إلى مدينة أزمير التي تقع غرب تركيا على البحر المتوسط، حيث ملتقى المهربين مع المسافرين ونقطة تحوّلهم إلى لاجئين... وصلنا إلى المدينة ليلاً ثم توجهنا مباشرة إلى الساحة

المركزية، ومنها قادنا السؤال الى مقاهي تقع على الساحل يتواجد فيها
المهزّبين، وهناك تفاجئنا بالكّم الهائل من المهاجرين، والمدهش أنه لا
حاجة لمترجم فالجميع يتكلم العربية!

أخبرونا أنه علينا الانتظار بضعة أيام فأمامنا رتل من مختلف
الجنسيات مثلنا تماماً أغرته الهجرة، أغلبهم يحملون أوراق ثبوتية
مزوّرة تُفصح أنه سوري الجنسية!

السوري في الوقت الحالي يملك الدرجة الأولى لقبوله في بلاد اللجوء
الأوروبية، نظراً للوضع الأمني الذي يتعرض له البلد...

وربّما يحين اليوم الموعود للإبحار كنت أتابع الأحداث على مواقع
التواصل، أراقب ما يحصل من قصص غرق وفواجع أليمة تصيب
المهاجرين في بطن البحر، كذلك كنتُ ألاحق أخبار مدينتي حلب التي
ما تزال تنهش من صمود صبر أهلها...

أخذش مكان الجرح بأظفري كلما دنا التحامه لأفتحه من جديد فلا
ينزف سوى ألم وعذاب! لستُ مازوشياً كما تعتقدون، لكني أحاول أن
أبرّر سبب هجرتنا بالحالة السيئة التي عشناها وأبرئ ما بقي منّا بالقرار
الذي اتخذناه، وعلى كل الأحوال هناك دائماً تناقضات قوية تمتزج
بصراع داخلي لا يمكن تخمين الفائز منها.

وصلت تلك الليلة التي ينتظرها الجميع، ولا بد من التحضير لها، إذ قمت بشراء أربع سترات نجاة كي يرتدي كلّ واحد منّا واحدة، بينما نبيل بقي تحت حماية والدته، كان الجو أمام متاجر بيع أدوات الغطس والسباحة مشحون بالرعب والخوف من المجهول، فلا أحد هناك مما يشتري السترة يعرف كيف ستكون الرحلة، وهل سينجو منها؟ ومن سيموت؟

كنا مجموعة كبيرة مختلطة من كافة الأعمار ومن جنسيات مختلفة، من أفغانستان والعراق ومصر واليمن... أما الحصة الأكبر للحضور فهي لأصحاب الجنسية السورية.

كان الوقت بعد منتصف الليل حيث الظلام غطاء وساتر لما يحصل ورائه، قطعنا بصحبة أربعة شباب ملثمة مسافة طويلة حوالي ثلاث ساعات خلال الجبال والمنحدرات سيرًا على الأقدام حتى وصلنا إلى سفح حوله الصخور ممتدة من كل جانب إلا طرف واحد يتصل مع شاطئ رملي صغير، أضواء الهواتف النقالة دلتنا إلى نهاية المطاف، كان الزورق المطاطي في البحر بانتظارنا وهو يعلو ويهبط حسب شدة الأمواج التي تتخبط به، مظهره وهو يتراقص داخل الماء أخبرنا أنه جاهز للإبحار في رحلة الموت، إلا أن شكله دلّ على مدى ضعفه وقوة تحمله المنخفضة...

جلس الشباب المثلثة على طرف السفح، أشار أحدهم بيده باتجاه

الشاطئ، ثم تابع قائلاً بصوت منخفض:

- عند وصولكم الشاطئ ستجدون البالم بانتظاركم، اركبوا

البالم بهدوء، فأني فوضى تسبب خطراً على الجميع.

وكي نستطيع الوصول إلى البالم كان علينا النزول إلى البحر حتى

تغمرنا المياه الى منطقة الجذع، من ثم نصد عليه الواحد تلو الآخر

بشكل متوازن حتى لا ينقلب رأساً على عقب ويضيع الوقت، فهناك

جماعات أخرى تنتظر رحلتها وفق موعد محدد لكل مجموعة.

كان السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه في رأسي هو كيف لهذا الشيء

الخفيف أن يملك القدرة على نقل مجموعة كبيرة من الأشخاص يتخطى

عددها الثلاثين أو الأربعين شخص إلى عرض البحر؟!!

البالم لم يكن سوى زورق مطاطي صغير في مؤخرته مُحرك آلي

رديء، يتبرّع بقيادته أحد الأشخاص مقابل تخفيض مالي من قيمة

رحلته، وهذا البالم عليه أن يحط بنا على شواطئ الأراضي اليونانية

بأقل خسائر من الأرواح! وقراصنة الموت غير مسؤولة عن أي فشل

يغتيال العملية من غرق أو مداهمة خفر السواحل...

وبعد الوصول إلى اليونان علينا المتابعة بالمضي إما سيراً على الأقدام

في الغابات بين الدول الأوروبية أو التنقل خلسة بواسطة القطارات الى

الأراضي الألمانية، وأصحاب الحظ السيئ هم الذين يقعون بين أيدي الشرطة الحدودية فتمنعهم من مغادرة البلد ومتابعة الرحلة، لتقوم بعدها على ترحيلهم إلى مخيمات اللجوء الحدودية.

توقف أفراد المجموعة على الشاطئ يتناقلون النظرات فيما بينهم، تقرأ في عيونهم قصص وحكايات تروي ما عاشوه دون أن ينطق أي واحد منهم بكلمة!

ثم أخذ الواحد تلو الآخر بدخول البحر ليحصل على مكانه داخل الزورق، بينما أنا رحت متأملاً إياه أحاول معرفة ماذا سيحلّ بنا إن نحن ركبنا هذا الشيء المتراقص! ...

لا حياة ورائنا والخطر أمامنا ولا خيار لدينا سوى النزوح

كان لا بد من قرار الهجرة واللجوء نحو المجهول

بعدما فقدنا كل إمكانية احتمالات البقاء

أولها الأمان وآخرها أن نعيش كإنسان ...

ودّعنا الماضي وحملنا معنا الذكريات فقط

ثم بدأنا الزحف عبر ذاك القارب المثقل

لقد أراد قراصنة الموت أن ندخل في مراهنه خاسرة مع القدر

حيث الأجواء في بطن البحر كانت مرعبة

وعصا الشمس تلعب برؤوسنا كطابات البلياردو

بينما راحت الأمواج تُراقص أجسادنا
على إيقاع نبض قلوبنا الضعيفة ...
فرات الطفلة الصغيرة لم تقدر على تلك المباراة
لقد أُصيبت بنوبة دعر جعلتها تختلج بقوة على صدري
ثم راحت تختنق وكأن هواء الكون كله محبوس على كوكب آخر!
لملمت أحاسيسي المشوشة في وداع ابنتي الأخير
شعرت معها أن تلك لحظاتي الأخيرة
لقد كان موتها متوقع ولكن ما بعد الموت لم يكن في الحسابان!
سادت الفوضى على الموقف
صريخ بيسان ونحيب أمي تيريزا جعل أحدهم يستشيط غضباً
لفرض قوانين اللعبة ...
ممنوع تواجد الجثة على القارب ولا دور للجوكر هنا
ويترتب عليّ أن أرمي بطفلتي إلى البحر!
نظرت ابنتي فرات نحوي وفي عينيها كمية كبيرة من الهلع! دقيقة
واحدة كافية للسماح إلى نفسي لأقوم على تخيل ما سيحدث ...
مؤكد أنها لن تسامحني بتلك البساطة؟! وأنا الذي خاطرت بها، جازفت
وغامرت ما بين الحياة والموت!
اقترب أحدهم مني إلى وقف أمامي قائلاً:

هيا اصعد، لقد بقيت أنت وعائلتك، ماذا تنتظر يا رجل؟ الجميع

صعد على الزورق وأنت واقف بلا حراك.

في داخلي فوضى! وكل واحدة من بنات أفكاري تخاطبني على حدا

قائلة:

دقت لحظة الحسم، لا وقت للتأمل!

بماذا تفكر يا شريف، التردد ليس بمصلحتك.

أنت اخترت هذا الطريق يا شريف! ما بك الآن؟!!

كان قلبي ينبض بشدة ونظراتي مصبوبة على هاك الزورق ذو الفم

المفتوح الذي سيقوم على ابتلاعنا، من ثم قذفنا في البحر، كنت أشعر

بالبرد ونحن في شهر آب (أغسطس)، بدأت الرعشة تحنل أطرافي

وأنفاسي كادت تخفني، دنى مني المهرّب أكثر، ثم مدّ يده قائلاً:

أعطني باقي المبلغ واصعد بسرعة مع عائلتك، لقد تأخرتم!

أقطر نقاط تردد مثل رجل تلج بدأ بالذوبان بالرغم من أني كنت متجمد

من الخوف!... فأيضاً قصة الطفل إيلان الذي أودعته الأمواج غربقاً

على ذات الشاطئ الذي كنا نقف عليه، دقت في أوصالي آنذاك مسامير

منعتني من اتخاذ خطوة واحدة نحو البحر، ماس كهربائي سرى في

دمائي جعلني أنتفض، جذبني إلى الأعماق حيث وصلني إحساس بأن

مصيبة ما ستحصل عما قريب...

نظرتُ الى بيسان بعينين ترتعدان هلعاً وفزع، كانت هي أيضاً مثلي
تتوسل عدم المتابعة بل زادتها دموعاً تتسول فيها الرجوع، ممسكةً
ساعدي بشدة وهي تخبرني قائلة:

تمهّل... توقف هنا، لن نتابع... أرجوك

نعم، استطعت أن أتمرد هذه المرة على بنات أفكاري، قررنا العودة
أدراجنا، لن نتابع... لن أبحر ومعى عائلتي، لن أستسلم إلى براثن
الموت!... لم نستطيع المتابعة وخوض تلك المغامرة.

عندما تكون هواجسك في حوالة تخط فيك ما تخط، تمدّ وتجذر في
عواصف متتابعة من حولك! حتماً ستكون النتيجة خارج التوقعات،
وحسب ما تمليه عليك الحاسة السادسة.

خلعت سترة النجاة ثم رميتها على الأرض وكلي ثقة بما قررت، الجميع
كان يراقب ما سيحدث فقد عرفوا أنني تراجع عن القيام بالرحلة...
تقدّم نحوي أحد الشباب المسؤولة عن عملية التهريب ليهمس في أذني
بخشونة قائلاً:

لا يمكنك التراجع يا عزيزي، هذه ليست لعبة تتسحب منها متى
شعرت بالملل، هنا إما ترحل إلى البحر أو تموت بأرضك،
وليكن في علمك لم يعود أحد إلى البر حياً، المكان سري للغاية،
وليس من مصلحتنا أبداً أن تبقى على قيد الحياة!

رفع قميصه كي يريني سلاحه الصغير المحشور داخل خصر سرواله،
ثم تابع قائلاً بوجهٍ غاضبٍ:

ارتدي سترتك وارحل بهدوء، لا نريد المزيد من الفوضى
والتأخير، لقد شارف الفجر على البزوغ...

للمرة الأولى كنت عنيداً في قراري ولم أخاف من عواقبه، بقيت صامتة
بالرغم من التهديد الذي تعرضت له من جهة، ومن جهة أخرى هتاف
الناس التي كانت تنتظر على الزورق وهي تطالب بالانطلاق نحو
عرض البحر، كان الجدل بعيد وموضوع الشرح غير مطروح في
رأسي... كل ما أريده أن أبتعد مع عائلتي عن هذا المكان وأرحل عن
تلك المنطقة بأكملها.

سحب الرجل مسدسه وصوبه نحو رأسي معلناً عن بداية النهاية، ابنتي
فرات كانت ترتجف مختبئة وراء دموعها ساحبة بساقي إلى الخلف،
خوفها وصل إلى شرايبي وهي تبكي بحرقة لاذعة، بينما ببسان
صرخت بكلمات لم أفهم معظمها ولم أعرف معناها! ربما هي عبارة
عن دعاء أو توسل قالتها بكلمات سريانية على الأغلب...

ومن الجانب الآخر أصوات المهاجرين تتسابق لتصل إلى الهدف الذي
أتوا لأجله، لم أعد أركز ماذا أفعل وكيف أتصرف؟! أغلقت عينايا بكل
ما أحمله من إيمان أنتظر معجزة ربانية تخرجنا من هذه الورطة، لا

أدري ما هي بالضبط لكنني كنت واثق أننا لن نموت بتلك الطريقة وعلى هذه الأرض.

مرت ثواني والمشهد متوقف عند هذا الموقف، وإذ سمعت صوت قهقهة دوت في الفضاء ملأت الفراغ الذي كنت أدور داخله، سيطر الفرح على الأرجاء فجأة بعدما كان الضغط مشتعل لدرجة الغليان، فتحت عيناى لجهة البحر فرأيت الزورق المطاطي يبتعد على طريق الأفق، لم يبقى طويلاً حتى اختفى عن ناظري، لقد رحلوا دون أن يلقوا أي كلمة وداع، لقد رحلوا بلا عودة...

عادت الكلمات السريانية إلى مسامعي حيث دار الحديث بين بيسان والرجل الذي يحمل السلاح، دقائق معدودة غيرت الموقف 180 درجة، أرجع الرجل سلاحه إلى مكانه ثم وجّه الكلام نحوي بوجهٍ تجاهلت تعابيره، قائلاً:

خذ عائلتك وارحل من هنا بسرعة.

نظرت إلى بيسان علّها تقول شيئاً كي تفسر لي ما دار في الحديث بينها وبين الرجل، لكنها لم تقل أي كلمة! كل ما فعلته أدارت ظهرها للبحر وعادت أدرجها حاملة الرضيع على صدرها، ثم لحقت بها أمي تيريزا، وابنتي فرات أخذت تشد بيدي نحن العودة واللحاق بهما...

مؤكد أن بيسان تعرف الرجل المهرب وهو يعرفها من ماضي بعيد
مشارك وإلا لما دعانا نترك المنطقة بسلام.

في طريق العودة حاولت أن أجد إجابات للأسئلة التي تضرب في عقلي
فما وجدت جواب يشفي طريقة تفكير الرجل الشرقي! شعرت بيسان
أني مشغول في البحث عن تفسير لما حصل فأرادت مساعدتي حين
علقت على الموضوع بجملة واحدة حيث قالت:
هناك مواقف الأفضل لك أن تتخطاها دون توقف.

صفحات وصفحات يا صديقي عابد قمت على قلبها لأبدأ بصفحة بيضاء
نظيفة، صفحات أخرى قمت على تمزيقها ونثر القصاصات عبر
الأثير، صفحات وصفحات لم أجد فيها ذاتي! كنت دائماً عابر كلمات لا
أكثر... وهناك صفحات قام الفراغ على احتلالها ليس عبث يا صديقي،
وإنما لم يكن هناك ما يقال، أو بالأحرى الحقيقة في أغلب الأحيان لا
نستطيع الاعتراف بها.

هناك مواقف نتمنى ألا نتعرض لها ولكن للأسف لا بد من الوقوف
عندها ولو للحظات كي نتعلم بأن الحياة لست كما نحلم بها! ومواقف
كثيرة قمت على تخطيها دون الالتفاف إلى الخلف، فلما لا أتخطى هذا
الموقف بالذات؟!!

أقسى المشاعر هي التي تضعك في بركان الصمت

وفي داخلك حمم من عبارات العتاب.

أين أنت يا عابد أنني أختنق من ازدحام الكلام الذي في داخلي، أريدك أن تحمل عني بعض الاعترافات حيث لم يعد لها مكان هنا في صدري، عد أرجوك فالوحدة قاتلة ولقد أعلنت الهزيمة.

كان لدي القدرة على المشي لآلاف الكيلومترات دون أن أشعر بالتعب، مثل محرك يملك طاقة كبيرة فوق الوصف، يعمل ويدور بلا توقف أو راحة! اكتشفت حينها أن الإنسان لا يعرف مدى قوته إلا عندما يتجرد منها، أي القوة تكمن في قدرتك على ضبط الأحداث لصالحك عندما تفقد السيطرة عليها، هي فلسفة صعبة الفهم لكنها حقيقة راسخة في أعماق المنطق لم تطفو على الأذهان بعد.

طلب فرات المتواصل كي تتوقف وترتاح جعلني أنسحب من رحلتي الصاروخية التي بدأتها من الشاطئ، رحلت أبحث عن أقرب مأوى كي نحط رحالنا فيه، فوجدت مبنى صغير متواضع مؤلف من ثلاثة طوابق

يضم عشرة غرف على الأكثر، واجهته مطلية بألوان زاهية، أما الشرفات فكانت من الطراز الفرنسي الأنيق مزينة بالورود والنباتات الخضراء، يقف المبنى وحيداً بين الأبنية العالية التي تحيط حوله، أمامه حديقة صغيرة تحوي أشجار من الحمضيات ومقاعد خشبية بسيطة وأرجوحة، والأهم من كل ذلك لم يكن يطل على البحر، لم أعد أهوى

هواء البحر وأنفاسه المزعجة في الوقت الراهن، لا أريد تعذيب نفسي
عذابًا إضافي، يكفي بما هي فيه من ألم...

كانت الساعة التاسعة تقريبًا عندما دخلنا صالة الاستقبال، العائلة منهكة
للغاية إنهم بحال يرثى لها، تركتهم يرتاحوا في الغرفة من بعد الشقاء
الذي لاقوه في الوقت الفائت، بينما أنا تابعت السير نحو طرقات المدينة
المشتعلة بالمهاجرين، مشيت بلا توقف علني ألقى صديقي عابد بين
الجموع في الساحات أو ماشيًا بين الحارات أو أجدته في الحدائق جالس
ينتظر رجوعي! كنت أخشى النظر إلى البحر كلما صادفته أمامي في
نهاية كل شارع، لم يعد لدي ذخائر كي أخوض المزيد من المعارك،
كنت عاري من أشياء كثيرة! عاري من الذكريات عاري من الأحلام،
عاري من الأفكار وعاري من الحب...

مضى اليوم بكامله وأنا أمشي وحيدًا بلا أي شيء يثبت أنني شريف!
بدأت أشعر حينها أن اسمي هرب مني بطريقة جعلني أبدو أحمق، ما
معنى أن أكون شريف في زمن فيه القرار لحامل السلاح والكلمة
لصاحب المال؟! ماذا يعني أن أكون شريف ولا أعلم ما يدور حولي،
وماذا أكون لو لم أكن شريف؟! كل المواقف التي مررت بها لا تشبه
هذا الموقف، هذه أول مرة أقف عاري أمام نفسي من كل الأشياء!

رواية عاشت حلب

الموقف الأخير

الحياة لا تقف عند موقف

لست ضائعاً...!
طريق العودة لم أنساها
تلك البيوت... مررت بها، لكني لم أعرفها
لقد انطفأت المصابيح وتوقفت الأراجيح
هي أيضاً لم تعد تعرفني
لقد سكنتها الأشباح ولعبت فيها الرياح
الأبواب تشبه الأبواب والحديقة لم تعد حديقة
لمَ كل هذا الدمار؟ هل مرَّ من هنا إعصار!!
أين رحلوا؟ وهل نجوا...!
بترددٍ شديدٍ تقدّمت خطوات
كنت أسير بحذرٍ على الأتقاض
دقاتُ قلبي تُقرع كالطبول

أنفاسي تُلاحق بعضها فوق المعقول

ناديت..... ناديت

صدى صوتي يهمس من بقايا الغرف

صورهم، ضحكاتهم من حولي تلف

عندها..... وصلت إلى نقطة لا رجوع

خلفي ماضٍ موجوع وأمامي آهات ودموع

أين أنا...؟ ولم هنا!

لم أعد أعرف كيف الخلاص

لقد تعطلت عندي جميع الحواس

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

لقد كان أذان الفجر، أخيرًا استيقظت من أسوأ كابوس زارني خلال

حياتي الماضية، أعود بالله مما رأيت! اللهم احمّ حلب وفرج عن أهلها،

أستغفرك اللهم وأتوب إليك..... حسبني الله ونعم الوكيل.

شعور مؤلم أن تعود متأخر ويكون الوقت الذي ادخرت للمستقبل فات،

أو تكتشف أن كل ما فعلته في الماضي وهم وسراب...

أسئلة كثيرة تتكرر في كل موقف تتعرض له، أين أنا؟ ولم هنا بالتحديد؟

ماذا لو كنت هناك؟! بدا لي من كل ذاك الغموض أن الاختلاف الوحيد

في جميع المواقف هو المكان، بينما باقي الأشياء متشابهة، والقرارات التي نتخذها هي التي تحدد موقعنا في الحياة.

بعض الأمور عليك تقبلها كما هي، كالفراشة مثلاً من المستحيل أن تعود يريقة فالأفضل لها أن تحترق.

تناولت هاتفني النقال فور الانتهاء من أداء صلاة الفجر، كنت قلقاً جداً وأبحث عن أي خبر يأخذ معه هذا القلق، لقد تركت أهلي ومدينتي في وضع متأرجح بين الحياة والموت، إلا أن الأمر الذي اكتشفته في رحلة تصفحي للأخبار اليومية، أن عدم وجود خبر من طرفهم يعني أنهم بخير ولا شيء سيء حصل لهم!

الأخبار السيئة تنتشر بسرعة البرق، بينما الأخبار الجيدة تأتي على ظهر السلحفاة.

خبر واحد احتلّ معظم صفحات منصات التواصل الاجتماعي، كان يتحدث عن الجثث العالقة بين الصخور و المترامية منها على الشاطئ، وكيفية غرقهم أثناء رحلتهم الأخيرة في الليلة الماضية، وقفت أتأمل الخبر بصمت مصحوب بالهلع عمّا يمكن أن نكون نحن أيضاً معهم لو تابعنا رحلة الموت تلك! لترتاح أرواحهم في كبد السماء، فقد أن لهم أن يناموا بهدوء...

أعراض الخطر كانت واضحة وكفيلة في بتر قفزات كان مصيرها الوقوع بسهولة، لقد كان البحر غاضباً ليلتها، وهو يزمجر بأواجه العالية مُعلنًا عن شهيته لوجبةٍ دسمة...

لستُ نادم ولا آسف أبداً على قرار الرجوع إلى الخلف، حتى المال الذي صرفناه في تلك المحاولة لم أتركه يأخذ حيزاً من تفكيري، ليس بالضرورة أن نقامر بما نملك وبما لا نملك، فالروح كانت تتراقص على كفّ عفريت أعماه الحماس وهو يسير على حبل من الشوك! التضحية في بعض الأحيان جريمة، والمغامرة انتحار...

ونحن في اللحظة الأخيرة قررنا الوقوف وتغيير الاتجاه نحو السلام، حملنا ما كُنّا آتئينَ به من شغفٍ ورغبة لمستقبلٍ مشرقٍ عائدين بهما إلى مدينة تكون قريبة من مدينة حلب، رجعنا الى ولاية غازي عنتاب فهي الأكثر استيعاباً للسوريين من مختلف طبقات المجتمع السوري، من أصحاب المعامل أو المشاريع كالمطاعم والمخابز إلى العمّال والموظفين... أردت أن نبقي قرييون من الوطن إلى حيثما تنتهي الحرب فنكون أول العائدون إلى ديارنا.

بعدما حططنا الرحال في المدينة التي اخترنا الإقامة فيها، قمت على استئجار منزل لمدة ستة أشهر عبارة عن غرفتيّ نوم وصالة، ريثما أدرس الوضع جيداً من ناحية السكن والعمل وغيرها من مقومات

الحياة، كانت فترة تجربة لم أضع أي خطط نحو المستقبل، ولم أتخذ أي قرارات مصيرية، فلا أحد يعلم إلا الخالق ماذا سيحدث وأين سنكون؟! عندما يكون المرء سائح في مدينة ما، تكون الحياة مختلفة تمامًا فيما لو جاء وافد إليها سواء كان مهاجر أو لاجئ، فالأولى هو حتمًا يملك المال كي يجوب الأماكن السياحية لالتقاط صور السيلفي مبتسمًا أمام المباني الأثرية، وبإمكانه القيام بزيارة المتاحف والحدائق المائية وغيرها من معالم المدينة المشهورة وهو مرتاح البال....

والسائح أيضًا له مطلق الحرية في اختيار ما يأكله من وجبات مختلفة في المطاعم الفخمة، أو تناول ما يرغب من مأكولات محلية غريبة ليتذوق من باب الفضول والشعور بالمتعة من تجربة أشياء جديدة حتى وإن لم تسد زوايا معدته، ثم أنه يمكنه التسكع في الأسواق لشراء بعض الهدايا التذكارية التي تحمل طابع المدينة التي زارها كي يقدمها إلى الأصدقاء عندما يعود إلى الوطن، وهو يروي لهم عن مغامراته هناك، وعن وجوه الاختلاف التي رصدها بعين السائح.

أما عندما يقرر المرء أن يصبح مقيم في مدينة غير المدينة التي ولد ونشأ فيها، وأن يختار العيش في بلد غير بلده، فهذا كلام آخر مختلف عن السابق، فعليه هنا أولاً أن يصبح ماهراً في الاندماج في مجتمعه الجديد مع الحفاظ على المبادئ السليمة، ليكون مثلاً يُحتذى به بكامل

الفخر لوطنه وللدولة التي لجأ إليها، ثم يسعى لإثبات ذاته في مجتمع لا يمتُّ به بأي صلة! سواء من ناحية اللغة والعادات أو من جهة طقوس الأعياد والمناسبات الرسمية، بالإضافة إلى وجوب الاطلاع على الأحكام ومعرفة القوانين التي تطبق في البلد من خلال احترام كل ما سبق... كل شيء هنا سيكون نصب عينيه وأمامه شاء أم أبى! خاصة وأن الوصول إلى الضفة الأخرى كان بشقِّ الأنفاس، وبعد رحلة شاقة استنزفت كل ما يملك من مال وغيره من مشاعر ثمينة.

هنا عليّ أن أجد عملاً أكسب منه قوت يومنا، فلم يكن أمامي سوى الانترنت لاقتحامه من أجل التفتيش عن فرصة عمل، لديّ من المؤهلات ما تجعلني موظف لا بأس في مرتبه...

صعقتي خبر في إحدى المواقع الإخبارية الأجنبية، منشور فيه صفحة من جريدة بلد عربي مكتوب فيها (مطلوب خادمة من الجنسية السورية) نعم! هذا ما كُتِبَ في إحدى جرائد أشقائنا العرب! لا تعليق، نحن فعلاً بحاجة إلى معجزةٍ إلهية تنقذنا من حضيض الأفكار المريضة التي أَلمت بنا، هكذا هي الحرب تخلط الأوراق بشكل عشوائي ثم تقوم على توزيعها من جديد!

بعد البحث المكثف وجدت أماكن شاعرة في منظمة دولية لمساعدة اللاجئين الماكثين في المخيمات على الحدود بين البلدين، كان المطلوب

فيها إجادة اللغة الإنجليزية وقبول العمل ضمن فريق... الحمد لله سارت
المقابلة على وجه حسن وعُيُنْتُ في المنظمة على راتب ألف دولار
بشكل مبدئي، ولقد أخبروني أنه سوف يتكاثر مع الأيام المقبلة إن أثبتُّ
الكفاءة في العمل.

لقد اضطر بي الأمر إلى التعامل مع أشخاص يعملون بالتزوير، كي
أحوز على جواز سفر مزورّ وأوراق ثبوتية كما أُرغب، حتى أستطيع
الحصول على الوظيفة الجديدة، فهنا يمكنك أن تجد مكاتب للتزوير بكل
سهولة وأن تكون كما تشاء من اسم، تاريخ ولادة وعنوان... تحت
سقف حروف كلمة سوري.

الأحوال لم تكن عال العال، ولكنها كانت تكفي ضروريات الحياة
المتوافرة، في حمل المصاريف الكبيرة من آجار ودفع فواتير مختلفة
وغيرها من المستلزمات اللازمة في محل إقامتنا الجديد...
أما بيسان فقد حاولت أن تعمل بالمؤهل الجامعي الذي تحمله (أدب لغة
فرنسية) في المدارس العربية المفتوحة هنا... لكن المنهاج المدرسي لم
يوافق مهنتها، فاللغة الإنجليزية هي اللغة الأجنبية الثانية بالإضافة إلى
اللغة التركية اللغة الرئيسية.

وكي تقتل ساعات الفراغ التي كانت تداهم يومياتها أصبحت تُشرف على فرات وصدقاتها في المدرسة والسكن، في تحفيظ السور القصيرة للقرآن الكريم (مجاناً فهي تتأمل الأجر والثواب من الله عزّ وجلّ) كم أنا فخور بك يا حبيبتي كم أنت رائعة! بيسان حاولت أن تعيد الثقة التي غابت لفترة من الوقت، ولقد نجحت في ذلك من خلال أفعالها والتصرفات التي كانت تقوم بها في أصعب مرحلة من حياتنا الانتقالية المليئة بالمفاجئات.

نظرتنا إلى الأشخاص تتغير كما هي نظرتنا إلى الحياة، وذلك بحسب المواقف التي نتعرض لها وردود الأفعال حيال تلك المواقف.

في إحدى المرات جلست بيسان بعد الدرس تحكي لنا وهي غاضبة أن الفتيات التركيات الصغيرات يقمنّ على تحويل المعنى في السور القرآنية دون قصد لصعوبة نطقهنّ وعدم مقدرتهنّ على إخراج الحروف بشكل سليم، وهي دائماً كانت تحاول تصحيح النطق مع الفتيات التركيات بصدر رحب دون أي كليلٍ أو ملل...

على سبيل المثال: إنهنّ ينطقنّ حرف الحاء هاء لتتحول الحاقة إلى الهاقة، وحرف الضال يصبح دال لتتحول بعدها كلمة الضالين إلى الدالين، بينما حرفي القاف يصبح غين وحرف العين يتحول إلى همزة لتصبح كلمة الغارئة بدلاً من القارعة، ولقد بلغ السوء ذروته بالقراءة

في سورة القدر، فقد قمنّ بتحويلها من أعظم ليلة في الإسلام إلى أقبح ليلة لدى الإنسان، لتكون ليلة الغدر! أستغفر الله العظيم لِمَ ذُكِرَ والحمد لله على نعمة اللغة العربية، اللغة التي أنزل الله تعالى بها القرآن الكريم وجعلنا من النخبة في قراءة هذا الكتاب المقدس قراءة صحيحة.

لكن وأسفاه على هذا الجيل الذي يقوم بكتابة الرسائل بين أصدقائه بالحروف الإنجليزية المصحوبة بالأرقام من أجل التواصل فيما بينهم، والتي أطلقوا عليها اسم (عربيزي أو عربي ايزي)، مساهمين بتلك العملية في تشويه أعظم لغة في التاريخ عن طريق الإهمال والتجاهل.

أما عن أمي تيريزا فقد أصرت أن تعمل كمشرفة لإعداد المأكولات الشرقية في إحدى المطاعم السورية... أنا في البداية لم أوافق على رغبتها، لكنني استسلمت لقرارها ولم أقم على رفض الفكرة فيما بعد، لقد كانت ملحة للعمل معللة ذلك قائلة:

ما دمت على صحة جيدة لا أستطيع الجلوس دون عمل
يشعرنني بالمسؤولية، والحياة مشاركة لا غنى عنها، بالإضافة
إلى ذلك لا أقدر على العيش دون معايشرة الناس والاختلاط
بهم، فأنت كما تعلم أنا سيدة اجتماعية لا أحب الوحدة والهدوء،
عدم العمل خارج المنزل فكرة مرفوضة فلا تتعب نفسك في
الأخذ والرد، كن على يقين أنه طالما تستطيع العمل فعليك أن

تعمل كي تشعر بالفخر أمام نفسك، العمل حياة يا بني، ولا أحد يفعل شيء لا يحبه إلا إذا كان نكرة.

وبالرغم من أن معظم سكان المدينة يعتقدون الديانة الإسلامية، ونادرًا جدًا أن تلقى شخص يعتقد الديانة المسيحية، نجحت أمي تيريزا في بناء صداقات كثيرة حولها لدرجة أنه لا يستطيع أحد التمييز بينها وبين أي سيدة تركية هنا، بالإضافة إلى أنها أتقنت اللغة التركية بشكل جيد مما سهّل عليها عملية الاندماج في المجتمع التركي.

أمي تيريزا سيدة ذكية عرفت كيف تواجه التغيرات التي طرأت عليها، عبر التأقلم أولاً مع الجو الغريب المحيط حولها، ثم الاستفادة ثانيًا من تلك التغيرات وجعلها نمط حياة تعيشه من خلال الجهد والمثابرة، إلى أن حصلت على ما تريد بطريقة أفضل.

بشكل أو بآخر لقد اعتدنا جميعًا العيش في تلك المدينة، لأن المنطقة التي كنا نسكنها مليئة بالعائلات السورية، العراقية واليمنية النازحة من هول الحروب... حالهم من حالنا نزحوا بأجسادهم فقط بعدما تركوا أرواحهم عند الوطن الأم، لكن مهما شاءت الأقدار أن تفرّق بيننا لم تتمكن الأشواق على امتلاك طريق العودة، ولم تنتصر الغربة في تلك المعركة التي نخوضها.

أما حلب الروح ما غابت لحظة عني، حضورها الدائم في ذاكرتي
برهن أن المثل القائل (بعيد عن العين بعيد عن القلب) عارٍ عن الصحة،
ولا شيء يكسوه حتى في أشد لحظات الشعور بالسعادة، بل العكس
تماماً! لقد أمسيت كالمجنون في عشقها، كل شارع هنا وكل مبنى وكل
حديقة أو ساحة تذكرني بحلب، فقد جعلت لكل مكان توأم موجود هناك
يملك ذات الصفات والتفاصيل! حتى قلعة المدينة تشبه قلعة حلب
الشامخة، لكنها أصغر فبدت كأنها ابنتها الصغيرة وقلعة حلب هي
الأم... ذلك الجنس الذي اكتشفته بين المدينتين جعلني بارع في تخطي
الأيام التي غلب عليها طابع الشوق والحنين.

الشوق وحده يعلم أن للحنين أجراس تدق متى تشاء
لتوقظ فينا ذكريات حاول النسيان أن يسرح في غفوتها.
أين أنت يا صديقي عابداً؟! كي ترى كيف يكون العيش في غابة
الأحزان؟ كيف يكون المرء فيها صياد فاشل، يصطاد لحظات الفرح
التي ما تلبث أن تفر هاربة منه بسرعة وميض البرق، ليأتي بعدها
القصاص حاملاً سياط الحنين القوية التي تقوم على جلد الذاكرة تاركاً
أثر ضرباتها إلى الأبد.

لحظات صعبة حين نقرر إعدام الشوق إلى غير رجعة
فيأتي الصبر ليُفرج عنه بحجة الظروف!

وأنا أعلم أن ذاك الإفراج ينجم عنه آلام نفسية شديدة تكون أشد قسوة من الآلام الجسدية التي قد تصيبني جراء المرض، فالحنين يأتي على شكل ألم، كذلك العجز يكون ألم والقلق ألم أيضاً... الحب ألم والكرهية ألم... نحن نتألم في كل مشاعرنا لأننا رضعنا الألم مذكنا صغار، حتى اعتدنا عليه وكأنه تاريخ للصمود ومقياس قوة ذات قيمة باهظة!

معظمنا يتألم نفسياً دون أن يبوح أو يشتكي لأحد، واستمرار تلك الآلام تجعلنا نتحول من اسفنجية طرية ناعمة الى كتلة من الفولاذ الصلبة، تجعلنا نتجرد من المشاعر الجياشة، نرى الموت بألم العين ولا نتحرك، نسمع عن القتل ولا نصرخ، نتذوق مرارة الأيام ونبتسم لعلّ الألم يذهب بنا إلى الخلاص! الرحمة يا الرحيم، فالأرض ضاقت بما يحصل عليها وهي تستغيث مختنقة بما تحمله من ألم.

الرياح التي تأتي من ذكريات الوطن لا تحمل أي مسكنات، بل تزيد معاناة مرور ما عشناه على صفيح ساخن يحرق الماضي بما فيه، وفي كل مرة تُعاد الكرة إلى أن أمسى الحزن إدمان من الصعب تجاهله. فلا يمر يوم إلا وأبث فيه ما يخلجني من نوبات مختلفة اتجاه مسقط رأسي وجذوري...

بتّ أقول أشياء وأفعل نقيضها يا صديقي! فالكلام يبقى كلام حيث
الأقوال غير الأفعال، والحقيقة غير الواقع والواقع بعيد عن الأحلام!
وهلمّ جرّاً...

بالأمس عند الظهر كنت أسير على رصيف الطريق المؤدي إلى
جامعة المدينة، وإذ بسيارة تأتي من الخلف لتقف بجانبى وبداخلها
السائق وثلاثة أشخاص، فتح السائق النافذة وأخذ يسأل باللغة التركية
قائلاً: مرحبا، هل يمكنك أن تدلني على موقع مدخل الجامعة الرئيسي؟
نحن غرباء عن المدينة.

كان مدخل الجامعة قريب، رفعت يدي وأشرت إليه بإصبعي مع كلمات
بسيطة باللغة التركية، شكرني الرجل وأغلق النافذة لتبتعد عني السيارة
نحو الاتجاه الذي أشرت إليه، وبينما كنت واقف أراقب حركة ابتعادها،
وقع نظري على لوحة السيارة الخلفية، لقد كانت اللوحة سورية! صدمة
يا صديقي أن نكون من بلد واحدة ولا يعرف بعضنا البعض!

عندما نكون غرباء تضيع منّا أشياء ثمينة، أولها الانتماء.

قال لي أحد الزملاء في العمل الجديد:

عندما تقرر الرحيل اغلق الباب خلفك جيداً، فبعض الأبواب
المواربة كفيلة بإحداث إعصار مدمر كنت تحسبه نسيم عابر.
ثم تابع قوله:

نصحتي لك، لا تترك أحلامك متأرجحة بين الواقع والخيال!

هيا استيقظ، واجه الحياة بفعلك وليس بحلمك.

ثم جاءت زميلتنا الحاملة وقالت:

لكل منا عالمان عالم يعيشه وعالم يحلم أن يعيشه، ومن

الطبيعي جدًا أن يكون هذان العالمان بعيدين عن بعضهما، وقد

لا يعرف أحدهما الآخر أو قد لا يعترف أحدهما بوجود

الآخر... من منا لا يحلم؟!!

الأحلام لا تموت، بل تتغير بحسب ما يعيشه المرء، الجميع يحلم

ومعظم الأحلام تكون عكس الحياة الواقعية التي يعيشها أي شخص على

هذا الكوكب، كل شيء قابل للتغيير فما اعتدنا عليه كل يوم قد يرحل

عنا في المستقبل، وما نحلم به اليوم سيصبح غداً حلم آخر.

نعم! والمشكلة عندما نخوض المعارك الطاحنة في سبيل الشهادة أمام

تحقيق ما نحلم به، وما نزال نخوضها كل يوم، بل في كل ساعة

ولحظة! مما جعل منا محاربين أشاوس لا يملكون الوقت ليقفوا أمام

مرايا الحقيقة لنكشف مقدار ما مر علينا من تعرية للأخلاق.

الأحلام شيء مخيف تأخذنا إلى عالم من الصعب العودة منه، وكلما كان

الحلم كبيراً كان الطريق وعراً وشاقاً!

لا أحد يحلم بالفقر ولا أحد يحلم بالجوع أو المرض معظمنا يحلم
بالسعادة مهما اختلفت عناوينها.

الصغير يحلم أن يكبر والكبير يحلم بزمن الطفولة، الفقير يحلم بمنزل
دافئ يأويه مع عائلته أما الغني حلمه النفوذ والسيادة، القاتل يحلم
بالبراءة وأم القاتل حلمها تحقيق العدالة أو الثأر، أما الكاتب فيحلم
بالشهرة بينما دار النشر تحلم بالأرباح، الشاب يحلم بالنجاح والعجوز
يحلم بالشباب... حلم هنا وحلم هناك وجميعها يتطاير في فضاء
الأحلام!

ليس من السهل يا صديقي عابد أن أرمي سنوات خلف ظهري، وأمضي
كأن شيئاً لم يكن! ليس بتلك السهولة أبداً أن أعيش في حالة انفصام ما
بين عقلي وقلبي... الزمن وحده يعلم ما مررت به من منعطفات ويشهد
عليّ عدد المرات التي وقعت فيها وأنا واقف!
ها قد مضى عامان من الهجرة وثلاثة فأربعة! ولم تتسنى لنا الظروف
من أجل زيارة واحدة إلى حلب الروح...

تتسرب الأيام من بين أصابعنا دون أن تسقيني شربة لقاء.

يبدو أنه لم يحن الوقت بعد كي نلتقي

فما يزال للياسمين عطراً وللحنين عناوين في دفاتر الشوق

كذلك الصبر ما يزال ماهراً في اصطياد الأمان من نهر الأحلام!

وأنا بعيد عن وطني لا أملك منه سوى الهوية...

وما قيمتها في دولابي؟

كعروس تنتظر فارس أحلامها...

ألا تعلم أنها عانس منسية!

أخافُ أسيخُ غريباً بلا وطنٍ، حينها ما نفع الهوية؟!

في الحرب كل شيء مُباح، كل شيء يظهر ويختفي من حيث لا

تحتسب، ولا أحد يفهم معنى الحرب وما يدور من خلالها حتى يخوض

العراك معها، يفقد شيئاً فشيئاً ما يملكه من عباآت أخلاقية الى أن يقف

أمامها عاري تماماً، لا شيء بينهما سوى الموت، وكم من نفوسٍ تعرّت

في الحرب حتى توارى الحياء خجلاً منها!

الوضع الاقتصادي والخدمي في حلب ما يزال سيء، والأخبار ذاتها

التي تصلنا من تطهير وتحرير، ثم تطهير فتحرير وهكذا ... إلى أني

بتّ متأكداً أنه إذا صادف المرء الوطن عند منعطف التاريخ لن يلق

عليه السلام، فهو بحاجة له أكثر من أي أحد.

وأنا هنا في الغربة فقدت أعز صديق، لقد كان لي كل شيء في حياتي،

كان الماضي الذي رافقتني مع كل المواقف، وكان الحاضر الذي أحاول

عيشه خطوة بخطوة، وهو المستقبل الذي سأقف عنده لأرتاح من كل

مما سبق، في الغربية فقدت نفسي التي طالما كنت أنا فيها، في الغربية لم
أعد أعرف أين هي؟! أين رحلت؟ ولم كل هذا يا صديقي؟!
سأقت بي الأيام الى حيث لا أدري!
تاه معها الكلام والآمال ضاعت
صارت مع الحروب تجري...
رحت أبوح بها للأحلام عَليّ أعيدها من وراء ظهري
لكن الغربية سبقتني وكانت هي نصيبي وقدري!
أيمكن أن تصبح الغربية لي وطناً مع الزمن لتغتال عمري!
بينما الوطن يمسي غريباً لا يهتم لأمرني!
أعود بالله من هواجسك يا غربة
لن تحتل قلبي!
قلبي لا يتسع عاشقين.

قل يا صديقي عابد عني ما شئت، قل جبان... انتهازى وخائن
لأنني اخترت الهروب عن المكوث ومؤازرة وطني لما يتعرض له من
محنة ومؤامرة! لن أدافع عما فعلت لأنني شخصياً أستهجن ما قمتُ به،
نادم أشد الندم على اختيار طريق ليس طريقي.

أنا منهك يا صديقي، منهك من مجرد التفكير ما بين البقاء والعودة،
أعترف أنني كنت متسرع في اتخاذ قرار الهجرة، وأن العشوائيات

والفوضى العائمة على سطح هواجسي غطست إلى عمق أفكارني
وعبثت بالشوائب فأيقظت أسوأ ما كان خامد فيها.
نحن حالياً معلقين على جدار الانتظار مثل الساعات المعطلة التي
هجرتها عقارب الزمن، نعيش بلا تخطيط أو هدف، وما زلنا نحلم
بعودة السلام لنعود الى ديارنا آمليين أن نستيقظ من ذاك الكابوس
المرعب، فمهما بعدنا عن الوطن تبقى أرواحنا تعانق كل ذرة من ذرات
ترابه النفيس...

لم أعد أستطيع حمايتك يا قلب

فقدائف القدر تتوالى والروح من زجاج.

نظرت إلى جهاز الجوّال لأستطلع حالة الطقس لهذا الصباح، لقد كانت
العواصف تزئّر كالذئب في الليلة الماضية، واليوم ستقوم مبعوثة
مفوضية اللاجئين بالأمم المتحدة الممثلة العالمية أنجلينا جولي بزيارة
مخيم اللاجئين، لتقييم الحالة الإنسانية داخله، أما أنا سأقوم بمرافقتها في
الزيارة ك مترجم لغات (عربي، تركي، انكليزي) بينها وبين اللاجئين
والمشرفين والقائمين على التنظيم في المخيم...

مثل تلك الزيارات لا يمكن تأجيلها بحسب مزاجي أو مزاج الطقس،
فأغلب وسائل الإعلام والصحفيون ومبعوثو الدول من كافة أنحاء العالم

ينتظرون ذاك اليوم وتلك الزيارة، لذا كان لا بد من الاستعداد للانطلاق لتلك المهمة الموكل بها.

عملي داخل المنظمة جعلني أقرب أكثر من اللاجئين، وأشعر بشكل أعمق بقيمة الأرض والحضن الدافئ الذي افتقدناه بسبب طريقة التفكير العشوائية وحب الذات الطاغى على أنفسنا، والذي جعل من الأنانية وتفضيل المصالح الشخصية منهج نسير عليه في الحياة...

ازدحام شديد حول أفراد البعثة بالرغم من الأجواء السيئة، الجميع خرج من خيمته حتى يثبت وجوده بشكل أو بآخر، لكل شخص متواجد في المخيم قصة حزينة سافرت معه إلى المجهول، هناك أحداث ومواقف تحفر الذاكرة لترسم عليها ماضي من الصعب نسيانه!

ومن داخل أرض المخيم حثت الممثلة الجميلة القوى العالمية على القيام بالمزيد من أجل إنهاء الصراع المستمر منذ خمسة سنوات في سوريا ومساعدة الملايين الذين فروا من الحرب، وقد أدلت بأنها ترغب بإجراء عملية تبني طفل سوري، ليتم بذلك ضمّه الى تشكيلة أطفالها الذين جمعتهم من جميع حروب العالم...

ربما تحاول أن تصنع منهم عقداً عالمي تقدمه هدية للسلام، كي يقوم في كل حبة منه على استغفار الله عن خطيئة غيابه من أوطان هؤلاء الأطفال، وهو يكرر أستغفرك يا رب على غيابي من العراق، أستغفرك

يا رب على غيابي من سورية، ومن اليمن، أستغفرك يا رب على
غيابي من كل بلد ومن كل بقعة موجودة على هذه الأرض...
أو ربما أترسم من خلالهم صورة تحمل ابتساماتهم الحزينة لتنافس بها
ابتسامة الموناليزا المشهورة! وتصنع منها أعظم لوحة في تاريخ
البشرية! أو لتقوم على تلقين مسقط رأس الحرب درساً في الجغرافيا
بأنها استطاعت أن تجمع كل مساقط رؤوس أطفال مشردي الحرب
تحت سقف واحد! أو... أو....

كفى احتمالات أيتها البنات فأنا مثلكن لا أملك فكرة أو أي تفسير سوى
أنه وبكل بساطة تقوم على عمل إنساني، بالإضافة إلى أنها بادرة حسنة
منها كونها شخصية مشهورة، علّها تنقل العدوى الى باقي الشخصيات
المشهورة في الوسط الفني أو الاجتماعي لا فرق....

انتهت الزيارة بعد أن التهمت يوم كامل بكل ما فيه من أمطار
وعواصف، ولم يتم الاستغناء عن التحلية أيضاً! ها أنا ذا مستلقٍ في
مشفى حكومي ملفوف بالشاش الأبيض كقطعة مومياء أثرية من جرّاء
حادث سير باغتني نتيجة سوء الأحوال الجوية حينما كنت عائداً إلى
المدينة، وما إن تحررت يدي من قيود الضماد حتى انفكت هاربة مني
إلى أقرب قلم لأكتب رواية عاشت حلب.

رواية

عاشت حلب

نور شحط

إصدارات الكاتبة الأدبية

روايات

رواية عاشت حلب نُشرت عام 2017 من إصدار دار الحامد للنشر
والتوزيع في الأردن

رواية دلوك الشمس نُشرت عام 2018 من إصدار دار العَاية للنشر
والتوزيع في الأردن

رواية ماريونت نُشرت عام 2019 من إصدار دار حروف منثورة في
مصر

خواطر ونصوص نثرية

في عام 2020 تم إصدار كتاب خواطر ونصوص نثرية بعنوان
أمواج نبض الياسمين من إصدار دار حروف منثورة في مصر
كتب في تطوير الذات والتنمية البشرية

كتاب بعنوان شهد الوصايا والذي فاز بالمركز الثاني في المسابقة
الثقافية الدولية لمؤسسة هبة بنداري للتنمية الثقافية الدورة الثانية لعام
2021 وتم إصداره عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر
كتاب بعنوان لمبة واحدة لا تكفي فاز بجائزة التميز في المسابقة الدولية
لمؤسسة هبة بنداري للتنمية الثقافية الدورة الثالثة لعام 2022 وتم
إصداره عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر

كتاب بعنوان حديث الكتابة فاز بجائزة الإبداع في المسابقة الدولية
لمؤسسة هبة بندارية للتنمية الثقافية الدورة الرابعة لعام 2023 والذي
نُشر عن دار واو للنشر والتوزيع في مصر.

مقالات ومواضيع رأي

لدى الكاتبة عدة مقالات متنوعة في مختلف المجالات (اجتماعية،
نفسية، تربوية، فلسفية، أطفال...) جميعها منشورة في موقع الويب
الخاص بالمؤلفة.

موقع الويب [/ https://nurshahhet.blogspot.com](https://nurshahhet.blogspot.com)

قناة اليوتيوب <https://www.youtube.com/@nurshahhet>